الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة وهران السانيا

كلية الآداب و اللغات و الفنون

قسم اللغة العربية و آدابها

استراتيجية الخطاب في رحلة المقري إلى المغرب و المشرق

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في مشروع الأدب الرحلي المغاربي

إعداد الطالبة : إشراف الأستاذ الدكتور:

هواري جميلة. عبد القادر سكران.

أعضاء لجنة المناقشة :

الدكتور مختار حبار	رئيسا
الدكتور عبد القادر سكران	مشرفا
الدكتور باي عز الدين	مناقشا

السنة الجامعية :2011/2010

شكر وامتنان

إلى كل أساتذة معهد اللغة والأدب بلا استثناء، تقديرا واحتراما

إلى أستاذي المشرف د.سكران عبد القادر

إلى لجنة المناقشة اعترافا بالجميل وتقديرا للجهود

مع كثير من الامتنان

الإهـــــداء

إلى روح أمّي التي عاشت متفانية وماتت راضية

إلى أبي الذي مازال يوصينا بإتقان العمل

إلى كل الأرواح المجنّدة لفعل الخير وصلاح الإنسان

إلى كل الذين أحبّهم وأحترمهم لأنهم يحترمون جوهر الإنسان

مهما كان بسيطا وعاديا

جميلـــــة

مقدمة

➢ مقـــدمـــــة

بسم الله الرّحمن الرّحيم و الصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❖ لا يقولنّ أحد، أنّ خبراء التَّفاوض والتَّسويق هم أحوج النَّاس إلى تعلّم طرائق بناء الاستراتيجيَّة في الخطاب دون سواهم .

فقد أثبت الواقع، أنَّ كلَّ فئات المجتمع بحاجة إلى اكتشاف أسرار التَّخاطب والتَّفاوض والإقناع والتَّضامن، فليس التَّاجر أو الدّبلوماسي أو المعلّم لوحدهم ، بحاجة إلى فهم أساليب وطرائق التَّداول. وما تعدّد الخطابات والآليَّات والسّياقات إلاّ دليل على ثراء النّصوص قديمها وحديثها.

إذ إنَّ هذا التَّعدد دليل على الغنى ومؤشّر على الحيويَّة والحياة .

فطبيعيّ -بعد ذلك- أن تتعدَّد المناهج بتعدّد زوايا النَّظر، فتختلف الآراء والنَّتائج، لكن القصد واحد- بلا شك- ألا وهو خدمة الفكر والأدب وتيسير سبل الحكمة أمام الإنسان.

أما الأدب الرّحلي فقد قيل فيه ما قيل من كونه:" فقير، لا يحتوي شيئا ذا بالٍ يمكن أن يُدرسَ" لكنَّ الواقع أثبت خلاف ذلك، فأقرب مرادف للأدب

الرّحلي هو أدب التَّجارب العديدة للشَّخصيَّات المختلفة في الأماكن والأزمنة المترامية. ولعلَّ هذا التَّنوع هو أحد أقوى أسباب الإغراء فيه.

أمَّا وجه الصّعوبة فيه، فهي عدم وضوح ودقَّة بعض نصوصها وهو أمر يتعلَّق بكلِّ المتون الموغلة في البعد.

وأمَّا أهمَّ الأسبابِ الموضوعيَّةِ التي جعلتني أختار هذا البحث المتواضع هي:

1- أنَّ " **رحلة المقرّي إلى المشرق والمغرب**" حديثة التَّحقيق.[1] لقد تناولتها الباحثة عماري فضيلة بدراسة "فنّ الإجازة في رحلة المقرّي التّلمساني" في إطار مشروع الأدب الجزائريّ القديم ، لكنَّ الإجازة ماهي إلا جانب من جوانب الرّحلة الثَّرية بالمواضيع، لذلك بحثت جانبًا آخر وفق المنهاج التَّداولي الّذي لم أعثر على من طبَّقه على الأدب الرّحلي الجزائريّ.

2- تأتي المقاربة في إطار دراسة مقياس : الأدب الرّحلي المغاربيّ لقسم الماجستير، وهو مقياس جديد تمَّ فتحه لأوَّل مرَّة بإشراف الباحث عبد القادر سكران[2]

1- لقد حقق الباحث محمد بن معمر في مادة التاريخ الإسلامي رحلة المقري إلى المشرق و المغرب سنة 2004.

2- الباحث صاحب رسالة دكتوراه الموسومة بـــ "الرحلة الحبيبية من جامعة وهران سنة 2007.

3-أنَّ دراسة الأدب الجزائريّ ضرورة تُملي نفسها على الباحثين والمهتمّين بإبراز هويَّتنا الوطنيَّة.

❖ أمَّا البحث فقد قسَّمته إلى: مدخل وثلاث فصول :

أ- **المدخـــل** :

- تناولت خلاله، تعريف الرَّحالة: **أحمد المقرّي التّلمساني،** فركَّزت على مكانته العلميَّة وعلى دواعي ترحاله ثمَّ ذكرت تميّز رحلته من حيث المحتوى.

ب- **الفصل الأوَّل**: عَرَّفْتُ مفهوم التَّداول مع شرح كونه ثالث حقل من حقول السّيميائيات ثمَّ عَرَّفتُ مفهوم الخطاب مهتمَّةً به تداوليًّا ، لذلك ذكرت عناصره خاصة السِّياق لعلاقته القويَّة والأساسيَّة بالتَّداول. كما بينت تمظهر السّياقات في المتن.

ج- **الفصـــل الثَّـــاني**:

عرضت المباحث التَّالية:

مفهوم استراتيجيَّة الخطاب في متن الرّحلة فبيَّنت معنى الاستراتيَّجية ثمَّ علاقتها بالخطاب. وأرفقت ذلك ببناء مخطَّطٍ يشرح مراحلها

وآليَّاتها، كما بيَّنت معنى الكفاءة التَّداولية وملكاتها مستشهدةً بالمتْن وكذا الأمر مع الكفاءة اللّغوية ومستوياتها.

تمَّ عرَّفت أفعال الكلام والقصد والهدف والإشاريَّات بغرض توضيح أدوارها كلِّها معتمدةً على التَّطبيق كإجراءٍ.

د-الفصـــل الثَّـــالث:

اخترت نصوصًا من المتن، متفاوتة الطّول مختلفة المواضيع والأجناس لأكثر من شخصية من شخصيَّات الرّحلة، وحاولت اكتشاف نوع الاستراتيجيَّة وكيفيَّة بنائها والسّر الكامن وراء اختلافها من خطابٍ لآخر.

أزعم أنَّني اجتهدت قليلاً وأعلم أنَّني قصَّرت كثيرًا...لكنَّني أتمنى على الله تعالى أن أكون قد أفدت مثلما استفدت.

و اللّـــه وليّ التَّوفيـــق

مـــدخـــــل

1- أحمد المقرّي: الرّحالة المتميز

2- رحلات المقرّي

3- "رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق" وخصوصيّتها

أحمد المقرّي؛ الرّحّالة المتميّز:

الرّحّالة إنسان، يأتيك من بعيد، بإكسير زمن مضى، يضعه بين يديك؛ تجربة مثيرةً مدهشة؛ فتنبعث من مرقدها؛ أسماء، وأماكن ومعالم وأحداث آسرة الغرابة، لم يحدثك بها أحد...

ذلك هو الجوّابة الجزائريّ؛ شهاب الدّين[1] أبو العبّاس[2]، الشَّيخ[3] أحمد بن محمد أحمد بن محمد بن أحمد ابن أبي بكر بن يحيى بن عبيد الرّحمن ابن أبي بكر ابن علي، المقرّي[4] التّلمساني.

ولد الرّحّالة الجزائريّ، أحمد المقرّي سنة (986هـ/1578-1579)[5]، بمدينة "تلمسان" ذات المياه العذبة، والجنان الخصبة، حيث السحر والجمال والدلال "فهي مدينة المغرب الأوسط ودار ملك زناتة ومتوسطة قبائل البربر، ومقصد تجار الآفاق، بها أسواق ومساجد (...) وأشجار وأنهار..." [6] لذا أثمر المقرّي طَيِّعًا ودودا محبًّا للمعرفة[7] شغوفا بها رغم

1- شهاب الدين: لقب مشرف أطلق عليه، تيمنا بشخصيته البارزة، وتلك كانت عادة العرب مع العلماء الأفذاذ.

2- أبو العباس: كنية عرف بها، علما أنه لم يرزق ولدا ذكرا -على الأغلب- فالكنية هذه تقدير وتشريف له.

3- الشيخ: كلمة تطلق على كبير السن أو رئيس القوم، أو على حاذق الصناعة أو كبير المقام...
المقري: نسبة إلى المقرة، مكان مولده.

4- ينظر:محمد بن عبد الكريم: المقري وكتابه نفح الطيب، ص114.

5- المرجع نفسه، ص 130.

6- يحي بوعزيز: تلمسان عاصمة المغرب الأوسط (مدن تاريخية)، ص25 (عن عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر، ج7، ص77).

7- نشأ أبو العباس المقري، متعطشا للعلم، محبا له فقد درس في أول عهده على يد عمه سعيد المقري، الذي لم يضاهيه عالم يومها في تلك المدينة. ثم أخذ عن علماء آخرين، قبل أن يرحل إلى فاس فيتزود من علمائها بل ليصبح مدرسا محترما في جامعة القرويين، ومؤلفا فقيها، بحسب له ألف حساب، وهو القائل:

"وقد أخذت جامع البخاري ومسلم عن حائز الفخار
عمي سعيد وهو عمن يدعي بالتنسي قد أفاد الجمعا"

- ينظر: محمد بن عبد الكريم: المقري، وكتاب نفح الطيب، ص131.

بداية انطفاء جذوة العلم، في تلك الأيَّام في عاصمة الزّيانيين "تلمسان الباهرة". ذلك أن عصر المقرّي، كان عصر الأتراك العثمانيين، الذين انشغلوا كثيرا بغزو الثّغور وصدّ الغارات..

وقد أفاض الله عزَّ وجلَّ، على أحمد المقرّي، إرثا لا يجاريه فيه، إلاَّ قلَّة من النَّاس... ذلك أن اثنين[1] من أفراد أسرته كانا عالميين كبيرين مشهودا لهما بالعلم والمعرفة ثالثهم أحمد[2] المقرّي وإنَّ لم يحالف الحظّ والده[3]، في إحراز مكانة علمية تُذكر...

لم يكـــن الشَّيخ أحمد المقرّي، عالمًا عاديًا ولم يكون؟! وقـــد شهدت له موسوعيَّتـــه بالتَّميـــز والبراعـــة؟!. ألم يؤلّف في الحديث[4]

1- أبو عبد الله محمد المقري الكبير، جد أحد المقري شيخ ومعلم كل من: الشاعر والأديب الكبير: لسان الدين بن الخطيب، وكذا الشيخ المفكر الشهير عبد الرحمن ابن خلدون.

تولى المقري الكبير، منصبا عاليا، كان قاضيا بفاس في عهد السلطان أبي عنان فارس المريني، حيث بنى له هذا الاخير "المدرسة المتوكلية" ليدرس فيها، مما يدل على مكانته عنده.

أبو عثمان سعيد المقري، عم أبي العباس أحمد المقري وشيخه وأستاذه، وهو أيضا شيخ "محمد بن مريم" مؤلف كتاب "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" بل إن سعيد المقري، عالم مدينة تلمسان قاطبة، جلس فيهات مفتيا ستين سنة ووقف خطيبا على منبرها خمسا وأربعين سنة.

2- أبو العباس أحمد المقري، صاحب الرحلة وهو المعني بالبحث.

3- لم يعرف الكثير عن والد أبي العباس المقري، يقال أنه كان عابدا خيرا وكفى، أما أمه فلا يعرف عنها أكثر من تاريخ وفاتها سنة (1038هـ/1629).

ينظر: محمد بن عبد الكريم: المقري وكتابه نفح الطيب ص20

4- كتب "إعمال الذهن والفكر في المسائل المتنوعة الأجناس الواردة عن الشيخ سيدي محمد ابن أبي بكر بركة الزمان وبغية الناس" في علم الحديث.

كما روى الكتب الستة الصحاح عن عمه سعيد المقري بل إنه "كان حجة بالغة في حفظ الحديث الشريف وضبط طرق رواياته، ومعرفة رجال الأسانيد، والتحري في كل ما يرويه". ينظر: محمد بن عبد الكريم: المقري وكتابه نفح الطيب، ص291. وينظر يحيى بوعزيز : أعلام الفكر و الثقافة في الجزائر المحروسة ص167

والتَّفسير[1] والفقـــه[2] والتَّوحيد[3] والتَّصوّف[4] والتَّاريخ[5] وحتَّى الطَّلاسم[6]؟!.

ألم يكتب ببراعة نثرا وشعرا؟!

ثم إن جلوسه شيخًا[7] مُدرّسًا، في كل من جامعتيّ القرويين والأزهر والأزهر الشَّريف، بل إن تصدّره مسجد الأمويّين بدمشق، وبمكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة، مدعاة للفخر والاعتراف بمكانته العلميَّة. ليس هذا وحسب، بل إنَّ الرَّحالة الفقيه، أخذ العلم عن شيوخ[8] كبار

1- كتب: "إعراب القرآن" فدل على قدراته في التفسير "حاشية على مختصر خيل الفقه المالكي".

2- تحج مؤلفاته بنصوص فتاوى، كما أنه اشتغل في منصب الإفتاء بفاس. ينظر المرجع نفسه، ص294.

3- "إضاءة اللجنة، في عقائد أهل السنة" أرجوزة في علم التوحيد، تناقل الناس، ألفي نسخة إبان حياته.

4- كان مريدا الشيخ الزاوية الدلائية المنتمية للطريقة الشاذلية المعروفة، وقد لبس الخرقة كما لبسها عمه سعيد المقري، بل إن جدة الخامس الذي جاء من بجاية إلى تلمسان برفقة الولي الصالح أبي مدين شعيب إنما كان مريدا من مريديه. أنظر المرجع نفسه، صص298-299.

5- كتاب: "أزهار الرياض في معرفة أخبار القاضي عياض"

وكتاب: "نفح الطيب في عصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب".

6- "رفع الغلط عن المخمس الخاي الوسط" في علم التنجيم.

7- محمد بن عبد الكريم: المقري وكتابه نفح الطيب، صص 266-269

8- يصعب إحصاء كل شيوخ أحمد المقري: فمنهم القصار وابن النعيم وأبو العباس بابا السوداني، وأحمد ابن الفندي وابن عمران... ينظر: الحفناوي: "تعريف الخلف برجال السف"، ص62.

ومنهم : أ- أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن عمران السلالي المتوفي سنة 1018هـ/1609م.

ينظر: محمد بن عبد الكريم: المقري وكتابه نفح الطيب، ص260.

ب- أبو فارس بن عبد العزيز بن محمد القشتالي الوزير المتوفي سنة 1031هـ/1922م. أنظر: أحمد المقري، "روضة الآس العاطرة الأنفاس..." صص 303/300.

استجازهم[1]. كما أجاز بدوره، عددًا كبيرا من التَّلاميذ[2] النّجباء.. وهذان مقياسان آخران يحسبان لصالحه حتما.

أما مكانة العالم الفقيه، أحمد المقرّي. فقد ثمَّنتها شهادات[3] كثيرة لرجـــال علـــم وأدب مـــن المغرب والمشرق على السَّواء، فقد ملأ الدّنيا -حقًّا- حبًّا واحترامًا...

والواقع، إنه كان أعجوبة في الحفظ وقوَّة التَّركيز. كما كان صاحب منهج طريف في التَّعليم، يشبه -إلى حد ما- الجاحظ في تداعياته. حيث كان: "يطّعم مجالس دروسه بإنشاده أبياتا أدبية، وباستطراده

1- لقد تناولت الباحثة عمَّاري فضيلة موضوع الإجازات في رحلة المقرّي إلى المغرب والمشرق بدراسة بنائها الفنيّ، وذلك خلال أطروحة الماجستير.

2- أجاز المقري، تلامذته المغاربة والمشارقة معا ومنهم:

أ- أبو الحسن على بن عبد الواحد بن محمد ابن أبي بكر الأنصاري السجلماسي السلانوي المدفون بالجزائر سنة 1054هـ/1645م. وهو القائل في إحدى مراسلاته: "... شيخنا ومعلمنا ومفيدنا وحبيب قلوبنا مولانا شيخ الشيوخ أبو العباس أحمد ابن محمد المقري المغربي التلمساني" ينظر: محمد بن عبد الكريم: المقري وكتابه نفح الطيب، ص269.

ب- أبو العباس أحمد بن شاهين القبرصي الأصل ثم الدمشقي توفي سنة 1053هـ/1643م. وقد صنف المقري كتابه: نفح الطيب من أجل تلميذه هذا، كما احتوت الرحلة مراسلاتهما.

3- لقد هام تلامذة المقري بشيخهم العالم، حيث قال عنه تلميذه المفتي عبد الرحمن العمادي:

درس عزيب كل يوم له ∴ يملي لكن حفظه أغرب

وقد عج كتاب "نفح الطيب.." وكذا "رحلة المقري..." برسائل كثيرة من مصر ومكة والشام تثني على المقري، كقول الشيخ عطيه من الإسكندرية: عليهم بأسرار خبير ببحثها فمن ∴ جاءكم قد نال علما وسؤددا

أو كقول الشيخ ابن جلال البكري : حاز الفصاحة والبلاغة والحماسة ∴ والتغزل بل وكل فنون

* الترويح عن النفس، بخلق فواصل استراحة صغيرة، قاعدة دعى إليها علماء النفس كما سبق إليها الوصول الكريم صلى الله عليه وسلم عندما قال: "روحوا عن قلوبكم ساعة فساعة، فإن كلّت عميت" أو كما قال صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

لحكايـــات الصالحين. من أجل ترويح* خواطر تلامذته، وتجديد انتباههم..." [1].

وهذا أمر جدير بالاهتمام، لأنه يكشف عن قدراته في التَّواصل مع الآخرين، بل وعمله الدؤوب من أجل تداولية محكمة : التَّواصل الحسن الموفَّق، هو أحد أهدافها.

1- محمد بن عبد الكريم: المقري وكتابه نفح الطيب، ص267.

رحلات المقرّي:

- هل الرّحلة احتجاج؟!
- أم هي إيغال في البعد وهروب من محنة؟
- أم الرّحلة وثبة إلى الأمام، نحو المختلف؟
- ألم تكن رحلة أحمد المقرّي إلى المغرب الأقصى سنة 1009م[1] رحلة إلى فاس ، خزائن الكتب وكنوز المكتبات حيث نوادر المخطوطات وآثار محفوظات.. فاس حيث ردهات قصر المنصور الذهبي[2]؛ أشتهر سلاطين السعديين، وقمة مجد العلماء المحظيين.
- ألم تكن رحلة المقرّي إلى فاس ومراكش خطوة وحظوة، أثمرتا؛ **"روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيتهم من أعلام الحاضرتين بمراكش وفاس"**[3].
- لقد كانت الرحلة وثبة أوصلته بلاط الذهبي، وصيرته إلى مجالس العلماء أيضا.
- ثمّ رجع آفلاً إلى مسقط رأسه تلمسان، فتلقَّته بالتَّرحيب والتَّبجيل...
- لكنه عاد –مرة أخرى– إلى السَّفر؛ لأن الغياب هنا، حضور هناك.

1- محمد بن عبد الكريم المقري وكتاب نفح الطيب، ص142.

2- المنصور الذهبي أشهر سلاطين السعديين بالمغرب الأقصى. ينظر: رحلة المقري إلى المغرب والمشرق، ص60.

3- كتاب قيم ترجم خلاله المقري لـــ34 عالما من علماء فاس ومراكش.

فقد كانت رحلته إلى فاس سنة 1010هـــ/1901م[1] حضورا ساطعا، حيث صار إماما وخطيبا بجامع القرويين مدة خمس سنوات ونيِّف[2].

ومرة أخرى، رحل الفقيه عن المغرب الأقصى إلى أرض المشرق العربي... ليوغل في البعد والنَّوى، ولكن هروبا من الضَّجيج وترفّعا عن[3] الهمس... كانت رحلته مغالبة للقهر، وتنكّرا للفوضى والصّخب، قاصدا وجهة المثل[4]، أو ديار الحج والنَّقاء والصَّفاء...

ورحل –بعدها– إلى دمشق ومنها إلى مصر التي رحل منها إلى ربّ العزَّة والسَّلام. فدفن قرب الأزهر الشَّريف سنة 1041هـــ/1631م[5]. لقد كانت رحلات المقرّي مجامع للأسى والمنى معا، تطوي بين لفائفها أفكارا وأسرارا ومناوشات.

فلماذا، نهوّن من أمر الرّحالة، الذين جابوا الفيافي والأمصار؟!.

1- محمد بن عبد الكريم: المقري وكتاب نفح الطيب، ص150.

2- المقري: نفح الطيب في غصن الأندلس..."، ج7، ص265.

3- أشار المقري إشارة خفية إلى سبب رحلته إلى المشرق حيث قال: "..إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أو رد ولا محيد عما شاءه... بقطر المغرب الأقصى الذي تمت محاسنه لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع آمنة نقصا". ينظر: المقري: نفح الطيب، ج1، ص13.

4- كان كثير الارتحال إلى الحرمين الشريفين، وبيت المقدس، حيث حج 5 مرات واعتمر 7 مرات وزار بيت المقدس 3 مرات.

5- محمد بن عبد الكريم: المقري وكتاب نفح الطيب، ص245.

ولماذا نطمس أدب الرّحلة، منساقين وراء المشكّكين المدّعين، بأنّها مجرَّد وصف سطحي لماض تليد وأرض غابرة ، بأدوات ضحلة وأساليب خاوية؟!.

أليست الرّحلة فن مناوشة، له ظاهر وفيه خفاء؟!.

وهذا الاختلاف والاختلاط المدهش في نص الرّحلة، هذه الأجناس الأدبيَّة الكثيرة النائمة بين سطورها، والتّي تسمح بتداولها. أليست مدعاة للتَّفكر والسّؤال؟

خصوصيَّة رحلة[1] المقرّي إلى المغرب والمشرق:

"**الرّحلة**": نص مثير للإشكال؛ حيث يتقاسمك الشكّ، في مدى حقيقته ومدى خرافيَّته.

لكنَّه هنا، أكبر من "رحلة" في المكان أو الزمان... وأكثر من حقيقة وخيال.

إنَّه "**رحلة**" ولا ترحال. اللَّهم إلاّ ذلك الانتقال من نص إلى نص ومن شخص إلى شخص.

و"الرّحلة" بهذا، تخرج عن المعروف وعن المألوف، لتظهر؛ "حمّالة وجوه"، تعبر عن سياحة روحية في الآفاق، بين الكلمات وتحت السّطور...فالمقرّي، عندما نوى الرّحيل، "أدار ظهر[2] المجن" وقطع[3] الجبال هربا أو ترفّعا، لا ضير لكنَّه "ذهب مُغاضبا"[4]، باحثا عن جوهر غامض !

لعله فرح العثور على القُرناء الذين حفظُوا للكلمة هيبتها، وللبلاغة سحرها. قُرناء يحيطونه بهالة الحب والتَّقديس، الذي ينعشه...لذلك رحل "المقرّي" عبر التّراث والذَّاكرة، فلم يصف الآثار ولا العمران... و لم يحدد المسالك ولا الممالك وإنما هجر بلاد المغرب إلى أرض المشرق، طلبا

1- حققت "رحلة المقري إلى المغرب والمشرق من طرف د.محمد بن معمر، أستاذ التاريخ الإسلامي، جامعة وهران، سنة 2004.

2- كناية عن التغير والتحول والغضب

3- كناية عن الإيغال في البعد والنوى.

4- كناية عن سيدنا يونس عليه السلام، عندما خرج من (مدين) غاضبا.../ القرآن الكريم سورة الأنبياء ،الآية 78 .

للنّسيان... نسيان الأحداث السّياسية، والحزازات الشخصية، بل الانسلاخ عن حقبة تاريخية صعبةٍ ومأزق سياسي[1] إلى شرق أكثر وضوحا وانبلاجا*...

لكنَّه طُولب بتذكُّر وذكر تاريخ حافل بالأدبيات والأسماء والانجازات... فكتب رحلته هذه، التي تنتهك محددات نمطيَّة "الرّحلة"، ذلك الجنس الأدبي الواصف للمكان، المؤرّخ للتَّفاصيل، الزَّاخر بالتُّراث إلى رحلة تتراتب خلالها الرَّسائل والأسماء والألغاز والمدائح والمراثي... ويتناوب على بناءها النَّثر مرة، والشّعر أخرى...

والمقرّي "في متنه هذا"، يحيلنا إلى مراجع أخرى، وزمن ومكان آخرين، فهو يسجل –اعتمادا على الذاكرة- أدب المغاربة مطعما بأدب المشارقة، متداولا بين فئة "الأنتليجنسيا"**، آنذاك، ممثلا في أجناس أدبية وأشكال ومواضيع علميَّة وأدبيَّة، تسمح ببلورة معالم صورة عن فكر القرن 11 الهجري.

أولج "المقرّي"، سيرته ضمن "الرّحلة" في شكل أقوال وأخبار تضيء جوانب من حياته، كمتحدث أو رواية كما كشف عن شخصيات كبيرة عرفها واتصل بها.

1- محمد بن عبد الكريم: المقري وكتابه نفح الطيب، ص

* وجد المقري متنفسا له في رحلته غلى المشرق ، حيث نال مبتغاه بزيارة مكة المكرمة كما إبتعد عن جو السياية و أزمة العرائش في المغرب

** الأنتلجنسيا : مصطلح يقصد به في علم الإجتماع فئة العلماء و المفكرين الرواد الذين يقودون المجتمع.

و لم يكن "المقرّي" يومها يعلم، أنه يَلِجُ -بهذا- جنسا أدبيا آخر، لم يتم تحديده إلا حديثا؛ هو جنس "السّيرة الذّهنية الذّاتية" حيث يكتب محمد الدّاهي[1] معرّفا بهذا النّوع: "تبيَّن أنَّ هناك ميثاق سير ذهنيا معلنا ومصرحا به بوصفه، محددا لجنس يهمّ بالأساس المفاصل التّعليمية والفكرية لشخصية ذات مركز اعتباري هام، أو مشروعا للكتابة يتميز عن باقي النماذج الفكرية المعروفة، وتتفق في اعتبار السّيرة الذّهنية حكاية نثريَّة تترصَّد أطوار حيوات أفراد واقعيين معروفين بمناقبهم ومآثرهم ومجهوداتهم، وهي تهتمّ في المقام الأوّل، بالجانب الإخباري أو التّحليلي الصّرف، وبتسريح النّادرة أو الاحدوثة، وبتقصّي مكوّنات وأسرار النّزوع الأدبي والفكريّ للمترجَم له، وبالاطّلاع على الشّواهد اللاّزمة (على نحو المذكرات واليوميات والشّهادات والرّسائل والكتب والمقالات...) وبالبرهنة على صحَّة بعض الطروح والحقائق الفكريَّة والفنيَّة".

وإذ يتماهى جنس "الرّحلة" بجنس "السّيرة الذّهنية الذّاتية"، حيث يتداخلان ويتشابكان في نقاط شتَّى، مثل:

- التّركيز على مفاصل تعليميَّة فكريَّة..
- شخصيَّة ذات اعتبار.
- حيوات أفراد واقعيين مشهورين.
- الاهتمام بالجانب الإخباري...

1- محمد الدّاهي: شعرية السيرة الذهنية (محاولة تأصيل)، ص24.

- إلا أنَّ أوجه الاختلاف بين الجنسين ظاهرة على دقَّتها:

أ- إنَّ جنس الرّحلة لا يترصَّد أطوار ومراحل حياة الأفراد المذكورين... بل هي شذرات من حياتهم ومواقف متناثرة من واقعهم يعوزها التسلسل الزَّمني الدَّقيق.

ب-إنَّ "الرّحلة" (أقصد رحلة المقرّي) ليست حكاية نثريَّة، بل هي مزيج من الشّعر والنَّثر معا. كما أنَّها عبارة عن صور متقطّعة لأحداث ومواقف وأفكار لا تجتمع ولا تترتَّب إلاَّ في علاقتها بالمؤلف؛ "المقرّي".

ج- إنَّ السّيرة الذهنيّة الذَّاتية، تكتب بغرض التَّرجمة لعالم أو أديب.. لكنَّها هنا، كتبت بطلب من بعض أعيان المشارفة، رغبة منهم في الاطّلاع على أدب وفكر المغاربة.

د- إنَّ "المقرّي" كتب "الرّحلة"، استجابة للمشارقة، مركزا على شخصيات شتَّى*، وليس على شخصه فقط، فهو لم يكن محورا ولا مرتكزا، إلا بالصّدفة، وفي خلال الحديث عن غيره، ممّن عرف.

لهذا تلاشت وثوقيَّة "الرّحلة" كجنس أدبي، وتماهت نمطيّتها المعهودة مرتَّين:

أولاً: عندما، ابتعدت عن جنس "الرحلة" الواصف للمكان والآثار والأيَّام والأَنام.

* كتاب من الشيخ ابن جلال البكري إلى ابن عمه، -الرحلة- ص109، نظم محمد المنوفي،-الرحلة- ص130.

ثانيا: عندما تشابكت مع جنس "السّيرة الذّهنية الذّاتية، بدون أن تكوّنَها.

وتثير "رحلة المقرّي إلى المشرق والمغرب" حيرة المتأمّل، عندما تصير "مدارة[1] تعدّد متداخل"، أو لنقل هي: "خطاب ينهض على تدافع خفيّ بين أجناس كثيرة"، ومواضع مختلفة، وأشكال متعدّدة[2]...

بل إنَّ الرّحلة "تقدم تشجيرا ثريًّا، وتعطي تصوّرا عن أدب وفكر العصر، هذا نموذجه:

1- اسطنبول ناصر: تداخل الأنواع الأدبية (الشعر المعاصر نموذجا)، ص19

2- المرجع نفسه، ص20

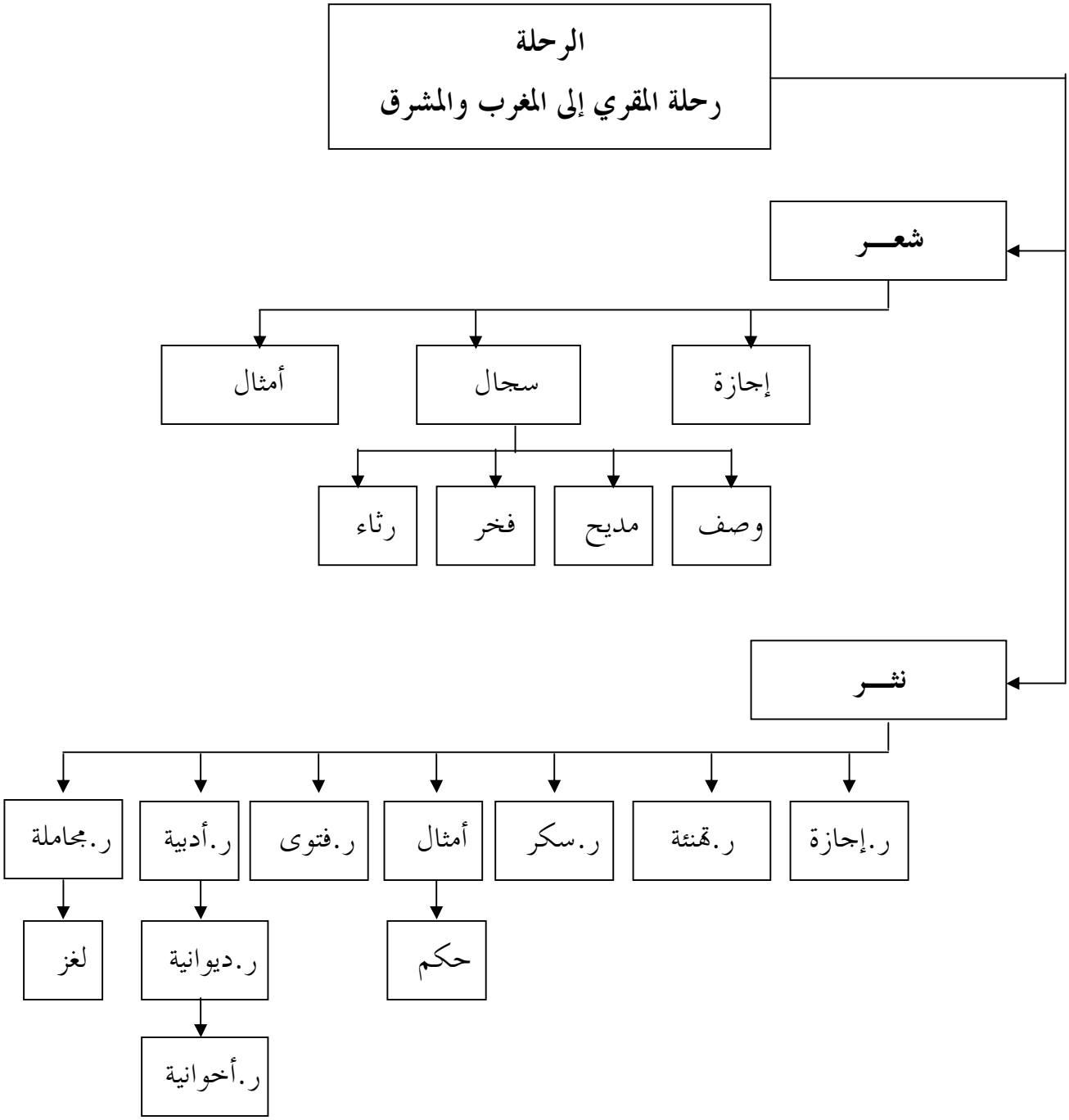
الرحلة
رحلة المقري إلى المغرب والمشرق
شعـــر
إجازة
سجال
أمثال
وصف
مديح
فخر
رثاء
نثـــر
ر.إجازة
ر.تهنئة
ر.سكر
أمثال
ر.فتوى
ر.أدبية
ر.مجاملة
حكم
ر.ديوانية
لغز
ر.أخوانية

ر:رسالة

وتنفتح "الرّحلة" مجدّدا على تشابك أجناسي آخر، فيظهر فنّ التَّراسل مميَّزا بأنواعه المختلفة... ذلك أن ظاهرة الرّحلة؛ تحصيل ضروب من المشاهدة، لكنها هنا تحصيل ضروب من الأخبار وتداول الأفكار والمشاعر عبر جدل التَّراسل أو جنس الرّسالة.

ومهما كثرت "الرَّسائل" خلال متن الرّحلة فإنَّ التَّنوع الكبير بيّنُ ظاهر، إذ احترمنا التَّقسيم القديم*.

* يقصد به التَّقسيم الكلاسيكي المعروف لأنواع الرسائل، ينظر: صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية، ص62-63.
و ينظر : طاهر محمد توات : أدب الرَّسائل في الأدب العربي في القنين السابع و الثامن ، حيث أقيمت الدراسة وفق التقسيم التالي لأدب الرسائل :

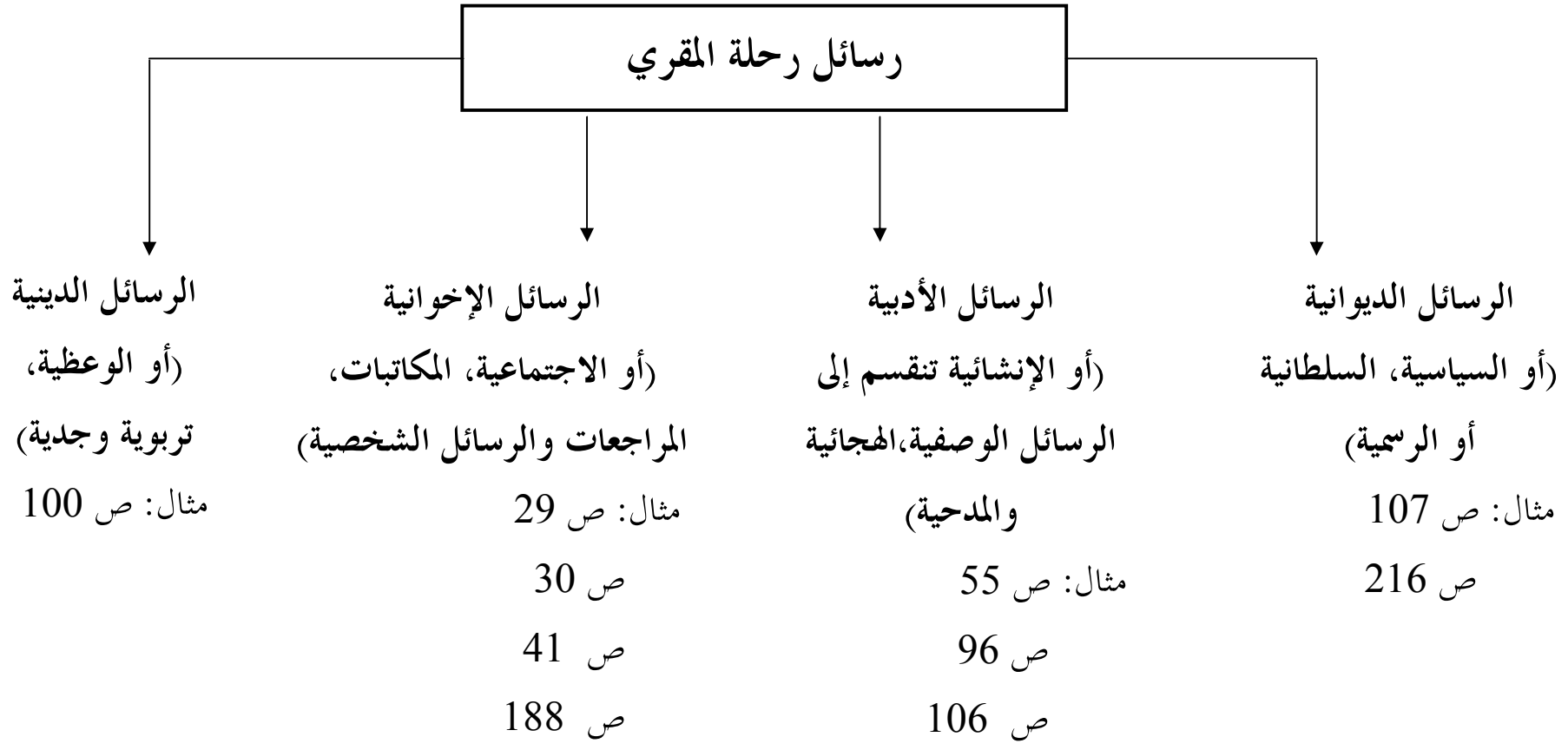

ملاحظة: رسائل الرحلة المقرية، بعضها شعري وبعضها نثري

ينبه الباحث صالح بن رمضان، إلى كون التَّقسيم أعلاه يغفل إمكانات أخرى في مجال تصنيف الخطاب أجناسيًّا وذكر خصائص التَّلفظ... ذلك أنَّ هذا التَّقسيم القديم، أهمل مقوّمات الخطاب،وخصائص التَّخاطب في علاقتهما بالمقام والمقصديَّة بل "قد إلتبس في أذهان نقَّاد الرَّسائل القديمة، تاريخ كتابة الرسائل باعتبارها عملا تواصليًّا عاديًّا بتاريخ أدب الرَّسائل، فلم يتمَّ التَّمييز بين تاريخ الأفكار وتاريخ الأدب"[1].

في فقرة[2] تالية، يكشف الباحث، عن صحَّة ما يقول عندما يتحدَّث عن الرَّسائل الدِّيوانية الّتي تصف الحرب وقوتها، مجدّدة غرض المدح للسّلطان أو البطل. ويبيّن كيف تخرج هذه الرّسائل الدّيوانية إلى خانة الرّسائل الأدبيَّة بامتياز.. كما بيّن كيف صارت الرّسالة الدّيوانية المتعلّقة بالفتح الإسلاميّ، رسالة إشهاريَّة تتجاوز التَّوثيق التَّاريخي إلى التَّفخيم والتَّعظيم[3]، وذلك بتجاوز التَّقسيم القديم الذي يدرس الشَّكل والمضمون، غير مبال بخصائص الخطاب ووظائفه واستراتيجيَّات تداوله.

من هنا صار الفضول إلى المنهاج التَّداولي أكبر، لدراسة "رحلة المقرّي إلى المشرق والمغرب" رغبة في تجاوز التَّصنيف القديم إلى النَّظير في النَّشاط اللّغوي باعتباره عملاً تواصليًّا يحمل خصائص التَّلفظ والمقام والقصد.

1- صالح بن رمضان: الرسائل الأدبية، ص61.

2- المرجع نفسه، ص73.

3- المرجع نفسه، ص71-72.

الفـــصل الأول

المنهج التّداولي وعلاقته بالخطاب

أ- مفهوم التّداول

ب- مفهوم الخطاب

1-مفهوم السّياق

2-عناصر السّياق

3-أنواع السّياق

ج- تمظهر السّياقات في الرّحلة

مفهوم التّداول:

التّداوليّة، أو البراجماتيَّة و فلسفة الذّرائع؛ مذهب فلسفي أمريكي من وضع المفكر "*شارلس ساندرس بيرس* (1839م-1914م) [1].

تدلُّ اللّفظة –أصلا– على ما هو عمليّ Pratique[2] علمًا "أنّ ما هو عمليّ" يُحيلُ إلى "ما هو تجريبي" والتّجربة عند "*بيرس*"، ليست إحساسا*.

فالإحساس نسبيّ في رأيه، بعيدٌ عن الحقيقة، لذلك صرّح في كتابه: "*تثبيت الإعتقاد* Fixation of Belief"[3] أنّ الحقيقة يمكن أن تكون موضوعيَّة، ومطلقة، وذلك بواسطة الاعتقاد، ومن ثمَّ فالإعتقاد** عنده؛ حكم مرتبط بالضَّرورات، أي: "بالنتائج العملية" لأنه حكم يُكَوَّنُ أساسا للقيام بعمل، أي بإنجاز.

أما إذ خالف الاعتقاد التوقعات، فإنَّ الشَّك المترتبَ عن ذلك، سَيُحِيلُنا إلى البحث عن بديل...لهذا، فالبحث وسيلة للكشف عن الاعتقاد.

وهكذا، عرفت التَّداولية عند "*رادلف كرناب*" بأنَّها امتداد للّسانيَّات أو قاعدة لها. ذلك أنَّه قصد البراجماتيَّة اللُّغوية، فقط.

1- محمد عزيز نظمي سالم، مناهج تفسير المعرفة، ص70.

2- ينظر: نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، ص18.

* يعود أصل الكلمة إلى الجذر اللاتيني Pragma الذي يعني (الفعل) (l'action) عرفت عند الفرنسيين في مجال القانون بمعنى المرسوم أو المنشور الذي يرمي إلى تسوية قضية هامة (Pragmatique sanction)، تطورت الدلالة من الاكتشاف إلى التطبيق العملي..

3- محمد عزيز نظمي سالم، مناهج تفسير المعرفة، ص70-71.

** الاعتقاد هو القصد الذي يهدف إلى فعل / عمل .

لكنَّ الاختلاف الموجود، هو أنَّ التَّداولية تدرس "الأبعاد النّفسية والاجتماعية والثّقافية للمتكلّم والمتلقّي، والجماعة التي يجري فيها التَّواصل مع احتساب مجموع السُّنن الذي يحكمه"[1].

تَعَالَقَ عِلمَا اللِسانيات والدَّلالة بالتَّداولية، عندما صار البحث في معاني الكلمات والجمل موصولا بالحقل النَّحوي التَّركيبي والتَّداولي معا. فظهر "*شارل موريس*"[2] ليفصل بين المستويات الثلاث، بما أسماه الدَّرس السّميائي، حيث ميَّز[3] في البحث اللّغوي :

أ- الحقل الدَّلالي Sémantique

ب- الحقل التَّركيبي Syntagmatique

ج- الحقل التَّداولي Pragmatique

أ- الحقل الدّلالي: يُعنَ بدراسة "مجموع العلائق القائمة بين المعاني والأشياء التي تعيَنها في إطار سياق اللّغة"[4]، بعيدا عن سياق الإستعمال والإحالة والمراجع.

ب- الحقل النّحوي التّركيبي[5]: يهتم هذا المستوى بدراسة، وترتيب مجموع العلاقات التي تحدثها الكلمة مع نظيراتيها داخل التَّركيب

1- نواري سعودي أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي، ص21.

2- المرجع نفسه، ص22.

3- المرجع نفسه ، ص24.

- ينظر أيضا: محمد سالم سعد الله، مملكة النص، ص26.

4- المرجع نفسه ، ص21

5- ينظر المرجع نفسه ص22 بتصرف.

إلى جانب الكشف عن القوانين والأحكام التي تكفل سلامة اللّغة، وضبطها وتوليدها.

ج- الحقل التَّداولي[1]: يهتمّ بدراسة اللّغة في علاقاتها مع النّاطقين بها والمؤوّلين لها.

وقد عرَّف "*شارل موريس*" التَّداولية بكونها؛ "تصبُّ إهتمامها على معالجة العلامات ومستعمليها، إنطلاقا من قصدية متعدّدة، وهي التي حركت عملية التَّواصل، وإحداث العلاقات داخل اللغة، وفق المناويل النَّحوية المختلفة"[2].

لقد ثبت أن الخطاب وحدة متكاملة، بل هو نسيج محبوك، لا يمكن عزل تراكيبه عن دلالاتها، ولا تغييبُ أو إقصاءُ طرفي الخطاب عن السياق أو القصد.

فالمستوى التَّركيبي -على صحته اللّغوية النّحوية- ليس معيارا كافيا، للكشف عن القوة الانجازيَّة الّتي يمتلكها التَّلفظ، ويولّدها، بفضل تقنيات خطابيَّة، تعبر -حتما- عن قيم دلاليَّة ما وتسمى؛ طرائق/ مسالك.

تدرس "التداولية" المنجز اللغوي، خلال التّواصل، وليس بعيدا عنه، فاللّغة في الاتّجاه التّواصلي*، لا تُدرَسُ كقوالب، ذات وظائفَ مجرَّدة.

1- ينظر محمد سالم سعد الله ، مملكة النص ، ص22 بتصرف.

2- مختار زواوي ، السيميائيات التداولية و أبعادها ، رسالة ماجيستير ، جامعة وهران 2002-2003 ص4

* مرت الدراسات التداولية بمراحل، قبل أن يثرى مفهومها وتغتني حقولها؛ (1- دراسة المعنى، 2- دراسة مراجع الألفاظ، 3- دراسة الاتصال اللغوي).

فَكُلُّ تلفُّظٍ يُنْجَزُ خلال سياق ما؛ (اجتماعيّ، سياسيّ، تاريخيّ، نفسيّ...) وهذا السّياق يؤثر –طبعا- على نظام الخطاب وتداوليَّته. لهذا حاولت "التَّداولية" حلَّ مشاكلَ عالقة، والإجابة عن أسئلة لم يُجبْ عنها الإتجاه الشَّكلي (اللغويّ الألسنيّ).

لكنَّ مقولة العالم الاجتماعيّ الأمريكيّ؛ "*Harold laswell dnigh*" جاءت مُنبهةً ومثيرةً لقضايا التَّداول: "*من؟ يقول ماذا؟ لمن؟ بواسطة أية قناة؟ وتحت أيّ تأثير*".

كشفت هذه المقولة عن طرفي خطاب: باث ومتلقي (من؟- لمن؟) وعن دلالة (يقول ماذا؟) وبواسطة أية قناة (سياق) وعن مقصدية (وتحت أي تأثير؟)[1]...

وهكذا، فتحت أبوابًا في البحث عن مختلف إجراءات التداول، لكن التَّوصل إليها لم يكن سهلا، لأنها لا تتشكَّل عبر التَّرتيب النَّصي النَّحوي أو وفق حسابات معدودة، بل يتمُّ الكشف عنها عبر تقويم ذهني محتمل، واستخلاص فكري، تؤدي إليه سياقات الكلام المختلفة..

1- غزال مختارية، وظيفة الاتصال عند ابن خلدون في ضوء العملية التعليمية، رسالة ماجستير، جامعة وهران، ص14

مفهوم الخطاب:

لا تزال إشكاليَّة النَّص والخطاب، تشغل النُّقاد العرب، كما أنَّ عددا كبيرا من البحوث ما تزال توظَّف المصطلحين بمرونة تامَّة وتداخل عجيب، بعيدا عن الدّقة والتَّمحيص اللَّذان يتميَّز بهما البحث والدِّراسة النَّقدية.

ومع ذلك فقد تنبّه الباحثون مثال: صلاح فضل[1] و عبد الواسع الحميري[2] وكذا حسن خمري[3] إلى هذا الالتباس أو الإشكال فحاولوا رَسْمَ مَعَالِمَ دالة، وتِبْيَانَ مفاهيم واضحة للتَّمييز بين النَّص والخطاب.

لقد برر د.حسن خمري[4]، لهذا الإشكال قائلا: "سببان جعلا من مفهوم النَّص مفهوما إشكاليا: الأول هو عدم استقراره كمفهوم نقديّ، والثاني محاولةُ كلِّ حقلٍ من حقول المعرفة استغلاله لأهداف إجرائية منهجيَّة". والحقيقة جليّة، في تلمّس تلك التَّضاربات والتَّناقضات في تعريف النص والخطاب.

فالنص عند الألسنيين والبنيويين: "وحدة لسانية أكبر من الجملة"[5] أو "مجموعة متتاليات لسانية"[6].

1- ينظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص.

2- ينظر: عبد الواسع الخميري، الخطاب والنص.

3- ينظر: حسن خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال.

4- المرجع نفسه، ص46.

5- نوري سعودي أبو زيد، في تداولية للخطاب الأدبي، ص15.

6- المرجع نفسه ص15.

وهو عند *بول ريكور*[1]: "خطاب مثبت بواسطة الكتابة".

وعرّف "*فان دايك*"[2] النص من وجهة لسانية تداوليَّة قائلا أنه "بنية سطحية توجهها وتحفزها بنية دلاليَّة عميقة" متصورا البنية العميقة؛ "كمّا مُنظمًا من التَّتابعات".

وينظر "*هاليداي*"[3] للمصطلح قائلا: "إن النَّص شكل لساني لـــ "تفاعل اجتماعيّ" وهو تبعا لذلك، ترهين للمعنى المحتمل".

ولا يبتعد "شميث"[4] كثيرا عندما يفترض النص: "كَمًّا من المنطوقات في وظيفة"، كذلك أَدْلَى "*ميشال أريني*"[5] بتعريفه قائلا: بأنَّ النَّص الأدبي هو "لغة إيحائية".

والحقيقة أنَّ مصطلح النَّص لا يكاد يختلف عن مصطلح خطاب ، فكلاهما شبكة أو نسيج أو ضفر[6]، بحسب الاتجاه النَّقدي أو حقل الدّراسة فهذان المصطلحان يترادفان مرة ويتفارقان أخرى ، ومع ذلك فإنَّ النَّص سلسلة لغوية ذات قوانين أَيْ مجموعة متتاليات ألسنية (عند بعض الألسنين) لأنَّ Kallmey مثلا قد وسع المفهوم عندما قال : "النَّصْ هو

1- عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص: المفهوم-العلاقة-السلطة، ص125.

2- المرجع نفسه، ص108.

3- المرجع نفسه، ص109.

4- المرجع نفسه ، ص110.

5- المرجع نفسه، ص112.

6- ينظر : قول فاجانج هاينيه مان / مدخل إلى علم لغة النص –صص4-5

مجموع الإشارات النَّصية الّتي ترد في تفاعل* إتصالي[1]". فصار مفهومه يضمّ الإشارات اللّغوية وغير اللّغوية** وبذلك تجاوز مفهوم النَّص قوانين اللّغة إلى الشّروط المقامية[2] وهكذا تداخل مفهوم النَّص بالخطاب الّذي هو أشمل لقيامه بدراسة الاستعمال الفعليّ للّغة، من خلال متكلمين فعليِّين، في مقامات حقيقية[3] .

لكنَّ المتتبّع لتطور المصطلحين، سيلاحظ، أن مصطلح "نص" تغيَّر بفضل اللّسانيات النَّصية وما أَفَاضَتْهُ عليه من نشاط فاعليّ، يعتمد على المعارف المقاميّة والسّياقية المنبثقة عن الدَّرس التَّداولي[4]... مما يعني أنَّ محاولة تعليم اللّغة، كملكة للتَّعامل اليوميّ العمليّ، فرض تجاوز تدريس القواعد كنماذج مثاليَّة إلى تعليم أنماط التَّحاور وعبارات التَّخاطب وِفْقَ مقاصد وسياقات وبالتَّالي تداخل مصطلح نص وخطاب بتداخل علوم كثيرة في مجال اللّغة وحقول دراستها التَّداولية .

– لذلك ، قد يعرف مصطلحا نص–خطاب تضييقا أكبر للمسافة بينهما. فهما نسيج ما انفك يتداخل.

---

* التفاعل هو أحد مواضيع الفلسفة اللغوية الحديثة التي أفرزت التداولية . إنساق إليها علماء للغة و اللسانيات خلال فصلهم بين الفعل و العمل . ينظر :فان ديك/علم النص ، ص128

1- قول فاجانج هاينيه مان / مدخل إلى علم لغة النص ص 7

** إشارات غير لغوية مثل صفارات الإنذار ، حركات الجسد ، بزة العسكري ، أضواء المرور إلخ...

2- ينظر أحمد المتوكل قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية ص16

3- خليفة بو جادي / في اللسانيات التداولية ص134.

4- خليفة بو جادي / في اللسانيات التداولية صص134-135.

و ينظر أيضا عبد الهادي بن ظافر الشهري / إستراتيجيات الخطاب ص

- تداوليًّا ، يتأسس الخطاب / النَّص على العناصر التالية :

1- المرسل

2- المرسل إليه

3- السّياق

4- الخطاب / الرّسالة / النّص

1- المرسِل :

بدأ الاهتمام والاعتداد بدور المرسل / الباث في الدّراسات الحديثة (كاللّسانيات)، فصار أساسيا لفهم المعنى وقصده، لكن البلاغة العربية كانت قد انتهت إلى دور المرسل في بلورة الدَّلالة وما يَنْبَغِي أَنْ يكون عليه، من معرفةٍ بظروفِ الخطاب والسَّامعين ومراتبهم وما يناسبهم .

"ذلك أنَّ جميع الآراء الَّتي ذكرها الجاحظ في السّياق في كتابه "البيان والتَّبيين" في خصـــوص شروط الخطيب تدخل في الملكـــة التَّواصلية*: فالخطيب الّذي تقوى لديه ملكةُ التَّواصل يتميَّزُ بقوةِ التَّذَكُرِ، وبالقدرة على مراعاة أحوال السَّامعين، والتَّفـــرس في وجوههم، وهو يحسن التَّخلص بالحجج، ويقدر بفضل رَبَاطَةِ الجأش وفصاحة اللّسان وكثرة الرّيقِ، على السَّيطرة على الفضاء الخطابي، وعلى إنفاذِ صوتهِ باستعمال مختلف طرائق التَّأثير والاستمالة. "[1].

فالمرسل محركٌ مهمٌّ، ومثيرٌ للمتلقِّي ، إذْ يرْمِي إلى إفهامه مقاصدَه وتبليغه خطَابه بل استمالته والتأثيرِ عليه بما يتناسب ومرتبة كليهما، المرسل والمرسل إليه اجتماعيا أو وظيفيا .. من خلال سياق مناسب أتمَّ بَلْوَرَتَهُ.

والمتلقيّ مثير للمرسِل من حيث القصد. فالعناية مركزَّةٌ عليه، فهو المعني بالدلالة المسوَّقة، فبناء المعنى أو الخطاب تبلورَ وِفْقَ شخصه ومترلته، إنه المعني والمقصود بالخطاب.

---

* يقصد الكاتب بالملكة التواصلية الكفاءة التداولية

1- صالح بن رمضان/ الرسائل الأدبية ص 149.

أمَّا اختيار الأساليب الخطابية، فمهمة المرسل الّذي يختار منها ما يناسب قصده. لأنه منتج الكلام وحَابِكُهُ، لذلك قد يختار الحذف أو الصَّمْتَ عوضًا عن الإفصاح أو الذّكر والتّبيان. وفي هذا المسلك ما فيه من إثارة للمتلقي الّذي يُعْمِلُ ذِهْنَهُ ويَشْحَذُ حَواسه لِيقفَ على سرِّ المحذوف، تساعده في ذلك القرائن أو العلامات المصاحبة للخطاب .

2- المرسل إليه :

للمرسل إليه سلطة خفيَّة، تتمثل في تكليف المرسل عناء البحث ومشقة اختيار الاستراتيجيَّة والمهارات والآليات والهدف لصياغة الخطاب/ الرّسالة بما يوافق شخصه، سواء كان المتلقي موجودًا فعلاً أو مُفْتَرَضًا، من ذلك عدول المرسل عن خطاب فاحش تَأَدُّبًا واحتراما للمرسل إليه مثلا .

والمرسل إليه / المتلقي، هو من يفكك شفرات الخطاب ويؤوّله، فيعرف مقصد المرسِل / الباث و هدفه ..

فالمتلقي، يجب أن يشترك مع المرسل في الكفاءة اللُّغوية، يعرف ظاهر الكلام. وقد ميَّز الدَّرس البلاغيّ العربيّ ثلاث أنواع من المخاطبين / المتلقِّين[1].

1-مخاطب خالي الذّهن من الحكم الذي تضمَّنه الخبر

1- السكاكي : مفتاح العلوم صص 170-171

2-مخاطب شاكّ متردِّد

3-مخاطب جاحد للخبر

لذلك ووجه المخاطب الأول بآلية إلقاء الخبر وكفى فسمي خبرا إبتدائيا .

أما الآلية التي وُوجِه بها المخاطب الثَّاني فهي التَّوكيد باللاَّم أو بإنَّ لقطع الحيرة أو التَّردّد الحاصل عنده. ويسمَّى عندها الخبر طلبيًّا .

أما المخاطب الجاحد المنكر للخبر، فقد خوطب بأكثر من آلية توكيديَّة كتوظيف (إنَّ و لام التَّوكيد معا). ويسمَّى عندها الخبر إنكاريًّا.

إنَّ الإهتمام بالمتلقي* هو الذي جعل الأدباء العرب كالجاحظ مثلا يؤلّفون المتون الجليلة القدر ، في مواضيع مختلفة متداخلة ، ترويحا عن نفس المتلقي و ايقاظا لهمَّته ونشاطه بل دفعا للملل و السأم ..

لعل رحلة المقري ، لا تبتعد عن هذا النَّهج فهي خليط من مواضيع ونسيج من خيوط وعديد من أشكال و أغراض و أخبار ...

3- مفهوم السّياق:

عُدّ السِّياق، عند العرب، مقاما، فعلى أساسه قامت علوم شتَّ، حيث نظرت البلاغة وكذا النَّحو إلى المقام، كشرط من شروط فهم الخطاب، بل وتفسير القرآن الكريم[1]، أيضا.

* لقد أفاض علماء التفسير و النحو و البلاغة في شرح هذا الدرس البلاغي (ينظر حديث المبرد و الكندي) و ينظر السكاكي : مفتاح العلوم صص170-171 ،و ينظر ابن فارس : الصاحبي ص179.

1- محمد الخطابي، لسانيات الخطاب، صص169-205 .

لكن الاختلاف قائم، بين مفهوم المقام* السُّكوني النَّمطي عند العرب، ومفهوم السّياق عند الغربيّين.

فالسّياق، عمومًا، هو محاولة المرسل، قول شيء يؤثّر به على المرسَل إليه، ومن ثم محاولة هذا الأخير، فهم قصد المرسِل، بالدّقة التيّ أرادها.

لكنَّ "*هذه الإجراءات لا تتبلور عبر منظومة خوارزميَّة تجريبيَّة كما هو الحال في النَّحو، بل عبر تقدير ذهنيّ عام ومحتمل، وفقا لعناصر السِّياق*"[1].

لذلك، يلعب السّياق، دورا جوهريًّا، في التَّفاعل الخطابيّ، كتحديد مرجع العلامات وتبيان قصد المرسِل، ففيه تنتج "*النَّصوص التيّ تدلُّ على مختلف مستويات، أو كفاءات التَّواصل عند النَّاس*"[2] فـ "*السّياق هو إطار رمزيّ جامع لمعايير وقواعد ونماذج وطقوس التَّفاعل*"[3] ممَّا يعني، أنَّ عمليَّة التَّواصل تتحدد ضمن السِّياق الذّي ينتسب إليه الأشخاص المتواصلون: (عمال مصنع، طلاب جامعة، أعضاء برلمان...).

يبدو السّياق –عند بعضهم- أوسع من المقام، لأنه إفراز فكر غربي طعَّمته دراسات شرقيَّة وغربيَّة، في فترة زاخرة بالنِّتاج العالميّ،

* المقام عند العرب : اعتمد كقالب نمطي معياري بينما تكوثر مفهوم السياق عند الغربيين وفق ما تنطوي عليه الثقافة و الفكر الإنساني . ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري / إستراتيجيات الخطاب . ص24

و ينظر خليفة بوجادي / في اللسانيات التداولية ص117/116

و ينظر السكاكي : مفتاح العلوم صص170-171 ،و ينظر ابن فارس : الصاحبي ص179.

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص24.

2- أحمد يوسف، السيميائيات وفلسفة المعنى، ص374.

3- المرجع نفسه، ص441.

والاختصاصات المختلفة. بينما كان المقام وليد بلاغة معياريَّة، ونحو مُؤَسَّسٍ على العقل والمنطق.

من هنا، أبان السّياق، عن دوره الأساسيّ، في تحديد معايير وقواعد ونماذج التَّخاطب، كالكشف عن مَقْصَديَّة المرسِل وآليَّة تأثيره... بل أبان عن المواقف الاجتماعيَّة والسَّياسيَّة والنَّفسية والفكريّة المتحرّكة التيّ تعبِّر عن مرسِل ومرسَل إليه ورسالة... معطيات متحركة، متغيّرة، تغيّر الخطاب.

السّياق، عند (*براون ويول*) [1]، مهمّ للغاية، لأنَّه يكشف عن مدى الانسجام في الخطاب لذلك، هو يتشكَّل عندهما من؛ المرسَل والمرسِل إليه والمكان والزَّمان. وهذه العناصر –بدورها– هي الّتي تسهم بعمق في تأويل الخطاب، بل إنَّ "*كلَّ نص قابل للفهم والتَّأويل هو نص منسجم، والعكس صحيح*"[2].

لعلَّ من خصائص السّياق؛ دورُهُ المزْدوج فقد قال *هايمس*: "***للسّياق دورا مزدوجًا، إذ يحصر مجال التَّأويلات الممكنة (...) ويدعّم التّأويل المقصود***"[3].

يظهر، هذا جليًّا، في كثير من الخطابات.. فقول المقري[1]، وهو العالم الزَّاهد، الورع:

1- محمد الخطابي، لسانيات النص، ص52.

2- المرجع نفسه ، ص ن.

3- المرجع نفسه ، ص ن.

إنَّ عِلْمِي وَذَكَائِـــي مِنْ مَرَامِي حِرْمَانِي
لَيتني كنتُ من التُّركِ جَهُولا قِرْمَانِـــــي*

قول غريب، كفيل بإدعاء أنَّ البيتين ليسا للمقري، على اعتبار شخصيَّته الوقورة العالمة، المبجّلة للعلم في أكثر من خطاب... لكنَّ قراءة البيتين وفق سياق الوجود والسّياق النّفسي، سيكشفان عن معاناة المرسل النَّفسيَّة، من الحسد والغيرة والغربة.

كما يكشف سياق الوجود عن فترة القرن الحادي عشر الهجريّ، وما آلت إليه أحوال الأمّة من تضعضع؛ حيث حاز مناصب رفيعة بينما أُبْعِدَ العُلماءُ، وانطفأت جذوة العلم فصار الجهل سمة غالبة والاستبداد ظاهرة... وهكذا يظهر المقري -من خلال البيتين- عالما محبطا، مصوّرا لمشاعر مؤلمة وأحزان دفينة، طفت -فجأة- رغم كبته لها..

فالمقرّي، لا يكره العلم، ولم يكفر به يوما، لكنّها حالات من الضّعف البشريّ، يفلت فيها اللّسان بما يخالف الإيمان... فظروف الحياة الصّعبة سمحت للجهلاء باعتلاء المناصب العليا، وعدم الاكتراث بالعمل والعلماء، بل إنَّ حملات الظّلم والتّجهيل لعبت دورا جسورا في اختلال موازين الحق والعدل.

1- أحمد المقري، رحلة المقري إلى المشرق والمغرب، ص107.

* قرماني : germain

هذه الظّروف كلّها، جعلت المقرّي يرمي إلى الدَّلالة أعلاه، مع استبعاد السّياقين السَّالفين كلَّ التَّأويلات غير المناسبة والتي كان يمكن لأحدنا أن يفهمها.

ومع هذا فالسّياق سياقات تتأبَّى على الحصر، وترفض الأسر ... إنَّها تداوليَّة بحق. فـــ" **السّياق مفهوم مركزيّ ، يمتلك طابعه التَّداولي ولكنَّنا لا نعرف أين يبدأ أو أين ينتهي**[1]"

وهذا تصريح آخر، يفتح بابا واسعا لإمكانية دراسة أنواع السّياقات، فما أعجب كثرتها !

1- خليفة بوجادي / اللسانيات التداولية ص115 عن فرنسواز أرمينكو / المقاربة التداولية ص48.

عناصر السّياق:

ينبني السّياق على عنصرين[1] هامين هما:

أ- العنصر الذّاتي

ب- العنصر الموضوعي

أما العنصر الذّاتي فيتمثل في معتقدات وأهداف ورغبات واهتمامات ومقاصد المرسل.

وأما العنصر الموضوعيّ فيشمل المكان والزّمان والمعرفة المشتركة بين المتخاطبين (المرسل والمرسل إليه) ، الشّخوص و باقي الأشياء المحيطة..

فكيف تبرز هذه العناصر السّياقية، في الرّحلة؟!.

يبدو المقري، مرسلا محوريا لمجموع الخطابات، حتى تلك التي كتبها غيره... لأنه أعاد كتابتها معتمدا على ذاكرته ومخزونه، علما أن صياغته هذه، قابلة للحذف أو الزيادة أو الخطأ...

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب. ص44

أنواع[1] السّيَاقات:

نتج عن تنوّع الأسيقة، تنوّع في التَّداولات وقد تم تصنيف بعضها كالتَّالي:

أ- السّياق النصّي

ب- السّياق الوجوديّ

ج- السّياق المقاميّ

د- سياق الفعل

هـــ- السّياق النَّفسي

أ- السّياق النَّصي: يكشف عن علائق النَّص وتماسك بنائه وانسجامه، وذلك بتحليل الخطاب والكشف عن كثير من آلياته، كالعطف والإحالة والحجاج... وغيره...

ب- السّياق الوجودي: يتمّ خلاله التَّركيز على المكان والزَّمان والاشاريّات، من أجل فهم وإدراك تداولية المرسل والمرسل إليه حيث يتمّ الرّجوع إلى الأحداث وعالم الأشياء المحيط...

ج- السّياق المقامي: يتجلّى من خلال التّعبيرات اللّغوية، التي تقوم مقام الحجّة على وجود هذا السّياق بالذَّات، لأنَّ المؤسسات المختلفة، كلّ منها يضطلع بما يناسبه من سياقات مقاميَّة، فخطاب الأستاذ والتّلميذ يختلف تماما عن خطاب السّائح ونادل الفندق.

1- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب ص

د- سياق الفعل: تتلخّص نظرية (*أوستين*) في أنّ "*كلّ الجمل تقال، ليكون لها قوّة تسمّى القوّة الإنجازيّة*"[1].

وقد وافق (*دكرو*) على أنّ للّغة معايير محدّدة، تجعل منها فعلا –أي فعلا إراديًّا- يُقصد من ورائه الإنجاز. الإنجاز الذي يقصده المُرسِل، ويريد من المرسَل إيه فهمه وإدراكه.

وقد أضاف (*جرايس*) إلى هذا بعدًا آخر، يتمثّل في شرط التّفاعل؛ لأنّ إدراك القصد وبالتّالي التّواصل، لا يتمّ بدون تفاعل. تفاعل الأطراف المشاركة، وتعاونها المنسّق.

هـ السّياق النّفسي: يستحيل على المرسل للخطاب أن يتواصل مع المرسل إليه، بعيدا عن الإدراك (إدراك القصد) أو بدون الرّغبة أو الاهتمام يستحيل التّواصل بدون سابق معرفة، أو اعتقاد، فالسّياق أساسا، ينبني على هذه العناصر... أما علاقتها بنفسيّة المرسِل والمرسَل إليه، فجليّة تماما. ذلك أنّ معظم هذه العمليّات نفسيّة ذهنيّة.

درجة أَنْ "**يُرْجع بعض اللّغويين التّغييرات الصّوتيّة التي أصابت لغات كثيرة إلى أسباب نفسيّة فالاستنفار الدّائم الذي يعيشه مجتمع معيّن يولد قلقا وتوتّرا نفسيّين، يحدّدان نوع العلاقة بين الأفراد، واعتزاز الشّعب بقوّته و عنفوانه يؤدّيان إلى أسلوب خاص من التّراكيب اللّفظية التي تميل إلى الشدّة و كذلك الرّخاء والاستقرار يولدان حالة الاسترخاء**

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص43.

و الميل إلى الدّعة ... "[1].

لذلك يتداخل السّياق النّفسي بباقي السّياقات ليشكّل نسيجا محبوكا، يسمّى خطابا.

إذا كيف تظهر هذه الأنواع في الرّحلة ؟

السّياق الوجودي في الرّحلة

قال المقري [2] :

إنَّني مِنْ كِسْوَةٍ كَانَت عَلَـــى
قَبْرَةٍ فِيهَا النَبيُّ الهَاشِميّ
فَلِسُحْبِ الخَيْرِ مِنْ أفْقِي أطْلُبَنْ
ولبرقِ المبتغى منها شَمِ

ويقول أيضا[3]:

إنّني مِنْ كِسْوَةٍ كَانَتْ عَلَى
قُبّةٍ فِيهَا الرَّسُولُ المُنْتَقَى
فَلْيَضَعْنِي فَوْقَ رَأسِ حَامِلِي
يَكُ مِمَّنْ نَالَ سَعْدًا وارْتَقَى

1- عاطف مذكور / علم اللغة بين التراث و المعاصرة ص 280

2- أحمد المقري / الرحلة ص 151

3- المرجع نفسه ص 152.

لن يفقه قار ئ هاتين المقطوعتين الكثير، إن لم يتعرّف على سياقهما الوجودي.

ولأنَّ بلاغة الخطاب، مرهونة بفهم القيمة المرجعيّة فإنّ التّعاقد الثّقافي بين المتخاطبين، هو الذي يشرح المرجع ويدلّ عليه.

قد يفهم العربيّ المسلم من هو النبيّ الهاشميّ/ الرّسول المنتقى، لكنّ كثيرا من المتلقّين لن يكون باستطاعتهم فهم ما جاء على لسان كسوة قبره الشّريف، صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم.

غير أنّ اشتراك المتخاطبين في معرفة سيرة المصطفى صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم، وما جاء في الأثر من خصوصيّة بركته وبركة متاعه، ومعرفة مدى إصرار المغاربة أكثر من سواهم على مسألة التّبرك، يسمح ببلورة فهم وإدراك للسّياق في هذين النّصين..

إذا، يكشف المرجع الوجودي عن دلالات مرجعيّة، فتتذلّل الصّعوبة ويُلغى الغموض، ويصبح خطاب "المقري" على لسان كسوة الرّسول محمّد صلّى الله عليه وسلّم، أمرا مفهوما واضحا.

ولقد جاء على لسان المقري في قصيدة رثاء لإبن أبي الفضل الصّديقي الوراثي؛ قوله[1] :

1- هَاجَ شَجْوِي و للزَّمَانِ حَوَادِثُ

فَقْدُ نَجْلٍ مِنْ آلِ عَبدِ الوَارِثِ

1- أحمد المقري/ الرحلة ص29

2- وَ ابنَ ثَانِ الرّسولِ فِي الغَارِ ذُو

البَيْتِ المُصَفَّى مِنَ الغَذْرِ وَالخَبَائِثِ

فقول الشَّاعر : " **ابنُ ثَانِ الرَّسولِ في الغَارِ** " كلام غريب على من لا معرفة له بقصّة الهجرة النّبويّة الشّريفة وبالتّالي معرفة قصة غار ثور، حيث كان أبو بكر الصّديق هو ثان اثنين أو رفيق الرّسول صلىّ الله عليه وسلّم .

أمّا الشّطر الثّاني من البيت (2) ففيه إشارة واضحة إلى نسب سيّدنا أبي بكر الصّحابي الجليل. وبالتّالي شرف نسب المرثي ابن أبي الفضل الصّديقي الوارثي .

فالسّياق الوجوديّ ، هو الذي وضح معنى البيت الثّاني .

أمّا حديث المؤلّف في إجازة لإبن القاضي عن الإسناد فقد جاء فيه ما يلي : "**فالعلم شَريف القَدْر، وليسَ من يدْرِي كمن لا يدرِي، و من يكنْ قَدْ زَانَ عِلْمًا بعَمَل، فَقَدْ حَوَى بذاك أشتاتَ الأملْ، وإنّ الإسنادَ لَهَاذِي* الأمّة خِصّيصَةُ خَصَّ بهَا ونِعْمَة، لَو لَمَ يكنْ لَقالَ مَنْ شَاءَ مَا شَاءَ فاعرِفْ أصْلَهُ والمنشَأ، وَقَيَّض الله لَهُ رجالاً، قَدْ وَسِعُوا في أمره المجال، وسَافَرُوا من أجلِهِ وارْتحلُوا، واتّسَمُوا بِالصّدقِ فيمَا انتَحَلُوا .**

ولم يزل أهل النّهَى كلَّ زمن، يَسْعُون في أخذٍ له عَنْ مُؤتَمَنْ، لِيَرغِمُوا أنفَ ذَوِي العِنَاد ، بمَا رَوَوْا بِصحّة الإسناد"[1] .

* هكذا كتبت في متن الرحلة.

1- أحمد المقري/ الرحلة ص77.

لا شك أن لفظة "الإسناد" تعني –لغةً– أقلّ مما يعنيه كاصطلاح فكريّ ، أي أنَّ سياق الوجود هو المرجع الذي نفهم من خلاله كل هذا الإصرار والإلحاح الذي يبديه المقري في نصّ إجازة حوله .

المسألة ليست بسيطة، ممتهنة. فخلوّ ذهن المرسَل إليه من سياق وجود لفظة "الإسناد" يعني عدم فهمه للنص جملةً و تفصيلاً، بل قد يتساءل عن معنى و دلالات ما جاء في الإجازة .

ولأن "الإسناد" في الفكر العربيّ الإسلاميّ، تخصّص علميّ جمعت على أساسه الأحاديث الشّريفة، بل هو علم جاهد في سبيله العلماء، بقطعهم الأمصار وارتحالهم إلى أبعد البوادي و الدّيار، وقد جاءت لفظة "ذويّ" وهي إسم من الأسماء الخمسة . جاءت لتشير إلى فئة مضمرة في النص هي فئة المكذبين بنصوص الأحاديث الشريفة –والذين سد "الإسناد" كعِلْمٍ قَائِمٍ –سدَّ أمامهم باب التّأويل فمرسل الخطاب– هو أحد أعلام الحديث وروَّاتِه – وهو بصدد إجازة المرسل إليه "ابن القاضي" في هذا العلم و غيره من العلوم . فحريّ به التّأكيد والتّوصيّة على هذا الأمر.

1- سياق المقام في الرّحلة :

يوضّح الجدول التّالي بعض السّياقات المقاميّة في الرّحلة

الملحق	الصفحة	المرسل (المقري)	المرسل إليه
06	ص29	هائج الشَّجْوِ	-أبو الفضل- يامن أبرم للمجد حبالا وثيقة —ابن ثان الرسول في الغار- ذو البيت المصفى
19	ص 59	العبد الفقير، البائس —خويدم- محب- قصير الباع- مغتبرب- عبيدك (الكاف تعود على الله عز وجل)	-العلامة الألمعي- سادتنا...
25	ص 71	مثلي لا يجاز لا أن يجيز	نهار لا يحتاج إلى دليل
35	ص 88	-خادم	-مخدوم- من نسل هاشم- العلامة الألمعي
37	ص 90	قاصر، جاهل، ليس أهلاً لأنْ يجاز فكيف يجيز...	-هو... أدرى- حبر طلع بدرا بأفق مكة سطعا- العالم الفرد الإمام الأوحد —حاوي المفاخر...
65	ص 123 ص 124	العبد الفقير- المغربي- المالكي الأشعريّ- معترفا بالجهل والقصور...	-صاحب قريب-صالح- هادي لفعل الخير —سيدنا علي الحضيري

65	ص 123	(علي بن أبي بكر الحضيريّ) - فكلنا لأمرهم يمتثل وينتهي عما نهوا إذ نسأل (يقصد المقري وأمثاله) مخاطب لشيخنا المقريّ	- عالم مفسر لكلام المصطفى- مرشد أهل زمانه- قدوة- مجيب على أسئلة فقية (مشكلة)
37	ص 91	(ابن النّاصر الفاسيّ)	ثاقب الذهن حفظه في العلم لا تحوي مداه العباب سالب الحزن وعظه أشهى من لذيذ الشراب- إذا استمليت فكره جاد مثل السحاب...
	ص 134	(محمد المنوفي)	-مركز علم لاح في الغرب- مؤمن مذعور- في مهجة الأعادي نار وفي مقلة الأحبة نور حصنت مجده تمائم سعد...- يداه على المعارف حصن..- أنت يا مسند الزمان سماء...

قراءة بسيطة لهذا الجدول، توضح اختلاف السّياق المقامي بين *"المقرّي"* ومراسليه، من ناحية وبينه وبينهم كمرسلين إليه للخطاب من ناحية أخرى...

فالمقرّي، كثير التّواضع والتّأدّب، ملتزم باحتقار ذاته، على الدّوام، معترف بالجهل والقصور.

وهو في نظر مراسليه –على اختلافهم– عالم جليل، فقيه، ثاقب النَّظر، واعظ لطيف، مستميل لقلوب النَّاس، سالب لأحزانهم... ممَّا يدّل على تميّز شخصيّته بكثير من الصّفات العالية، أوضحها؛ قدراته ومهاراته العجبية على التّخاطب أو التّداول والإقناع، والتي بلغ بها مبلغا رائدا في الشّرق والغرب.

أمّا مراسلو "*المقريّ*"، فأكثرهم لا يجيد نعتَ نفسه بالتّواضع واحتقار الذَّات، كما كان يحسن هو (ينظر الجدول أعلاه) حيث يظهر مقام المرسِل فارغا من أيّ وصفٍ لشخصه... اللَّهم إلاّ قلّة قليلةً، استطاعت مخاطبته من مقام الإمتثال والتَّلْمَذَةِ على يديه، وهو ما يَظهر في خطاب "*علي الخضيريّ*".

وهم في المقابل –على مكانتهم العلميَّة العالية والسّياسيَّة الرَّسمية– يرسمون له مقاما علميًا عاليًا، يدلّ على أنّه لم يكن رجلا عاديا.

السّياق النّفسيّ في الرّحلة:

قوَّة الرَّغبة في التَّواصل أو الكتابة، هي إحدى عناصر السياق النَّفسيّ.

فالرَّغبة القويَّة تُفضِي إلى الاهتمام، والاهتمام يُفضي إلى التَّخيل.. والخيال عمليَّة ذهنيَّة، نفسيَّة إدراكيَّة، تُفسح المجال واسعا لتوليد الصّور

الّتي تعمل بدورها على تصعيد الأحاسيس والمشاعر... وبالتّالي تعمل على ظهور الإبداع.

ومهما قيل عن التّكلف أو التّصنع، عند المقرّي "...فإنّ الجزم بذلك يحتاج إلى دراسة أوسع[1]... كما أنّ هذا الأمر لا ينفي -إطلاقا- وجود سياقٍ نفسيّ بكلّ مراحله وعناصره.

قال المقرّي[2] وهو يجيز الشّيخ تاج العارفين العثمانيّ التّونسيّ:

1- أَرِقْتُ لبرقٍ شُمْتُ مِنْ جَانب الخَضْرَا
أضاءَ فأذكى الشَّوق في كبدي جمرا

2- أذْكَرَني العَهْدُ القَدِيمُ وَطَالَمَـــــا
تُثير جوَى المشتاقِ للمعهِد الذِّكْرى

3- ولم أنسَ عهد الضَّاغنين وغادروا
مُتَيَّمهُمْ هَيْمَانَ لم يملك الصّبرا

4- فيا زاجر الأضغانِ وهي ضَوَامِرُ
تَرَفَّقْ بها، بالله لا تُكْثِر الزَّجْرَا

5- وحَيِّ غريبَ الحَيّ خَيْرَ تَحِيَّةٍ
وبَلِغْ سَلامَ الهَائِمِ المغرمِ المغرى

1- محمد مسعود جبران / فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب ج2 –ص389.

2- أحمد المقري/ الرحلة ص153.

6- ولا تنسَ سكَّانَ العقيقِ فإنَّهم من
العَينِ أجْرَوْهُ دموعًا غَدَتْ حُمْرَا

يتصوّر، قارئ القصيدة أنَّه بصدد مقدّمة طلليّة طويلة، وهو ما ذهبت إليه، الباحثة عماري فضيلة[1]، لكن نظرة تفحصيّة ستكشف ما يلي:

البيتان: الأول والثاني طلليّان، علما أنَّ الشَّاعر يشخص ضمنيًّا تونس الخضرا في صورة إمرأة تذكي شوقه...

الأبيات: ثلاثة، أربعة، خمسة: موضوعها الشَّوق إلى أرض مكة والمدينة.. فهو يتحدث عن "الضَّاغنين الذين غادروا"... ثم يواصل خطابه قائلا: "لا تنس سكان العقيق..".

ولا يتحول إلى شوق جديد إلا في ابتداء من البيت الحادي عشر... وذلك خلال حديثه عن تونس..

أما طرحه لموضوع الإجازة، فيفتتحه بالبيت السادس عشر إلى آخر القصيدة.

لقد تساءلت الباحثة عماري فضيلة قائلة[2]:

ماذا يفعل الطّلل في إجازة الشيخ المقري لتاج العارفين؟ والسؤال جدير بالبـــحث، لأن تتبع تيمات القصيدة –كما حدث أعلاه-

1- عماري فضيلة، فن الإجازة عند أحمد المقري التلمساني، رسالة ماجستير، ص94.

2- المرجع نفسه ، ن ص .

سيكشف عن جوّ نفسي –للشاعر– تموج مرارا، ليصنع سياقا نفسيا عالي الدراميَّة؛ فالشاعر لم يكن مستعدًا للدّخول في موضوع الإجازة أو ربّما مدح المجاز، مباشرة فقد أفرغ شحنات من الشوق والألم (حيّ غريب الدار..) والإحساس بالغربة والبعد..

البعد عن تونس، عن الحبيبة عن مكة والمدينة حيث راحة البال وراحة الروح من هوس الحياة بل إن البيتين التاليين يكشفان حقيقة السّياق النفسي للقصيدة حيث يقول[1]:

وفي سُوسَة قد كَانَ رقمُ بُرُودِهَا

وَقَدْ وَقَعَ التَّصْمِيمُ أن أرْكَبَ البَحْرَا

فَلاَ تُغْفَلُونَا مِنْ دُعَائكم عَسَى نَرَى

عنْ قريبٍ رَوْضَةَ المُصْطَفَى الغَـــرَا

جليّ للغاية، أن الشَّاعر كان في مدينة سوسة، متأهبا لركوب البحر بغية زيارة الرَّوضة الشَّريفة، أي الحجّ أو العمرة، وعليه فالسّياق النَّفسي للقصيدة، مختلف تماما عما يمكن أن يخطر في بالنا، إن نحن أغفلنا البيتين المؤشرين أعلاه.

ولعلَّ الرَّسم البياني التَّالي، يوضح تموجات المشاعر وجوّها المشحون بالشَّوق والبعد والوحشة...

1- أحمد المقري، الرحلة، ص154.

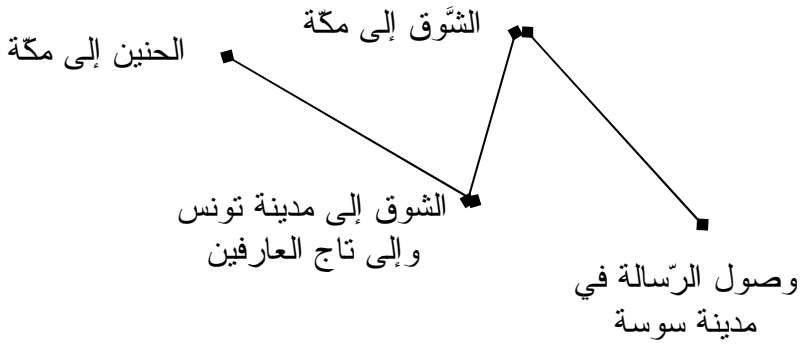
الشَّوق إلى مكّة
الحنين إلى مكّة
الشوق إلى مدينة تونس
وإلى تاج العارفين
وصول الرّسالة في
مدينة سوسة

الفـــصل الثاني

استراتيجيـــّـــات الخطاب وآليّاته

أ- مفهوم استراتيّجية الخطاب في الرّحلة

ب- آليات استراتيّجية الخطاب في الرّحلة

I. الكفاءة التداولية

- الملكات

II. الكفاءة اللغوية

- المستويات اللّغوية

III. أفعال الكلام

IV. القصد

V. الإشاريّات

أ- مفهوم استراتيجيّة الخطاب في الرّحلة :

ما معنى مصطلح استراتيجيّة[1]؟

عام 100م ظهر كتاب (Stralege nertan)[2] متضمّنًا الحديث عن الخدع العسكريَّة الّتي قام بها محاربون قصد التَّضليل، مثل تنفيذهم لمخطط عسكريّ غير المعلن عنه بهدف مباغتة العدو.

وقد تطوَّر مفهوم المصطلح عند (أندريه بوفر) في العصر الحديث ليشمل "تحقيق الهدف (السياسي) عن قوّة تظافر كل العوامل المؤثِّرة ماديَّة ومعنويَّة"[3].

وهكذا ظهر المصطلح في الحقل العسكريّ ثم السِّياسي ليعني: **"عمليَّة اختيار الوسائل وتحديد البدائل اللاَّزمة لتحقيق (...) الأهداف، وأنَّ الخطَّة وما يرتبط بها ويتفرَّع عنها من تخطيط، هي مجموعة الأنشطة والعمليَّات المثاليَّة اللاَّزمة لتنفيذ الاستراتيجيَّة ولتحقيق الأهداف، ويتضمَّن ذلك تفاصيل أساليب الإنجاز، وتوقيت العمليَّات، ونظام تتابع الأنشطة، ومكان تنفيذها، وحجم ونوع الموارد الماديَّة والبشريَّة اللاَّزمة لإنجازها"**[4].

1- "Strategy" مشتقة من (Strato) وهي بمعنى حشد وجيش، كما اشتق منها (Stratego) أي فن القيادة وأيضا (Stralagem) وهي بمعنى الخدع الحربيَّة، ينظر:عبد القادر محمد فهمي، المدخل، دراسة الإستراتيجيَّة، ص17.

2-الكتاب من تأليف اليوناني سيكستوس أكيونيس فرونتيسوس. ينظر المرجع نفسه ص21 .

3- المرجع نفسه، ص ن .

4- المرجع نفسه، ص26.

يستخلص من المفهوم أنَّ الاستراتيَّجية في جوهرها؛ علاقة بين وسائل وأهداف، فهي تجسيد عملي لمهارات وخبرات تؤسّس خطة محكمةً، ذات مقصد معيّن.

فما هي الآليات والأهداف والمهارات التي أتقن توظيفها في رحلة المقرّي؟!

وعليه، كيف يمكن الكشف عن الخطة المحكمة البناء في الرّحلة؟!

أو، كيف يمكن تحديد استراتيجيَّة الخطاب في الرحلة؟!

وما علاقة الاستراتيجية بالخطاب؟

استراتيجيَّة الخطاب :

ما الذي يريده المرسِل من المرسَل إليه؟

هذا هو السّؤال القاعدي، الذي يوضّح هدف المرسل، ومن ثمّ يوضَّح طريقة التَّخاطب المفترضة.

فالإقناع أو التَّهميش أو التَّعاون أو المراوغة كلها مهارات أو طرائق أو مسالك أو تقنيَّات لكن واحدة منها، تهمّ المرسل في خطاب ما. لذلك سينظر إلى مرتبة المرسَل إليه ومترلته، كما سينظر إلى زمن الخطاب الذي سيُحدّدُ السياق... وبالتَّالي ستلعب الإشاريَّات دورا هامًّا في بلورة زمن الأفعال (ماضي، مضارع، أمر...).

فالعرف الاجتماعيّ يقتضي مثلاً، أن تقول: صباح الخير، صباحًا، وأن تقول تصبحون على خير، ليلا... وهكذا... فأي ارتباك في عناصر السِّياق سيجعل طريقة التَّخاطب فاسدةً وعمليةَ التَّداول قاصرةً...

ولا يختلف المكان قيمة عن بقية العناصر السّياقية، فلا يمكن –تداوليا– لأستاذ أن يتحدث عن خصوصيَّات حياته في قاعة الدَّرس كما لا يمكن لشخص ما أن يدعو آخر لحفل زواج، خلال مراسيم الدَّفن في مقبرة.. وإلا اعتبر الفاعل معتوها وفي غاية سوء الأدب...

إذا، لا بد لكل خطاب من سياق، ولا بد للخطاب من علامات يتجلّى من خلالها، سواء كانت اللّغة الموظَّفة طبيعية أو علامات غير لغويَّة (إيماءات، تصفير، إشارات...) لكنها –حتما– ستتبلور في شكل سلوك؛ متأدب، وضيع أو عدواني..

المهم، أن التجمعات البشريَّة، تعمد إلى توظيف اللَّغة بأشكال منتظمة ومتناسقة؛ تناسقا يناسب متطلبات السّياق، بما في ذلك المعرفة المشتركة للّغة والعالم من حولهم.

أمَّا معنى التَّنظيم الذي يتناسب ومتطلبات السّياق، فيقصد به ذلك التَّخطيط الصَّائب الذي ينمّ عنه التَّلفظ بالخطاب، بشكل شعوريّ ومتواصل، أي أن المرسِل يختار استراتيجيَّة /خطَّة، ما للتَّعبير عن قصده وتحقيق هدفه.

والسّياق وحده، هو الذي يجعل الخطَّة أو الاستراتيجيَّة المختارة أمثل وأفضل وأنسب لهذا الخطاب المُنجَزِ أو ذلك...

إن اللّغة المستخدمة تعبر –أصلا– عن طبيعة التَّنظيم الاجتماعي، بل هي جزء من هذا التَّنظيم، لأنَّ "**اللّغة كسائر الظَّواهر الاجتماعيَّة خاضعة للتَّغير ، فلا تتوقف عن التَّطور إلاَّ إذا انقطعت عن الاستعمال فتغدو لغةً ميّتةً**[1]".

فاللّغة عند "دوسوسير" و"مابيه" وغيرهما انعكاس لثقافة مجتمعية و تعبير عنها[2].

1- نور الهدى لوشن / مباحث في علم اللغة و مناهج البحث اللغوي ص194.

2- ينظر جيلالي بن يشو / بحوث في اللسانيات : الدرس الصوتي العربي صص13-15

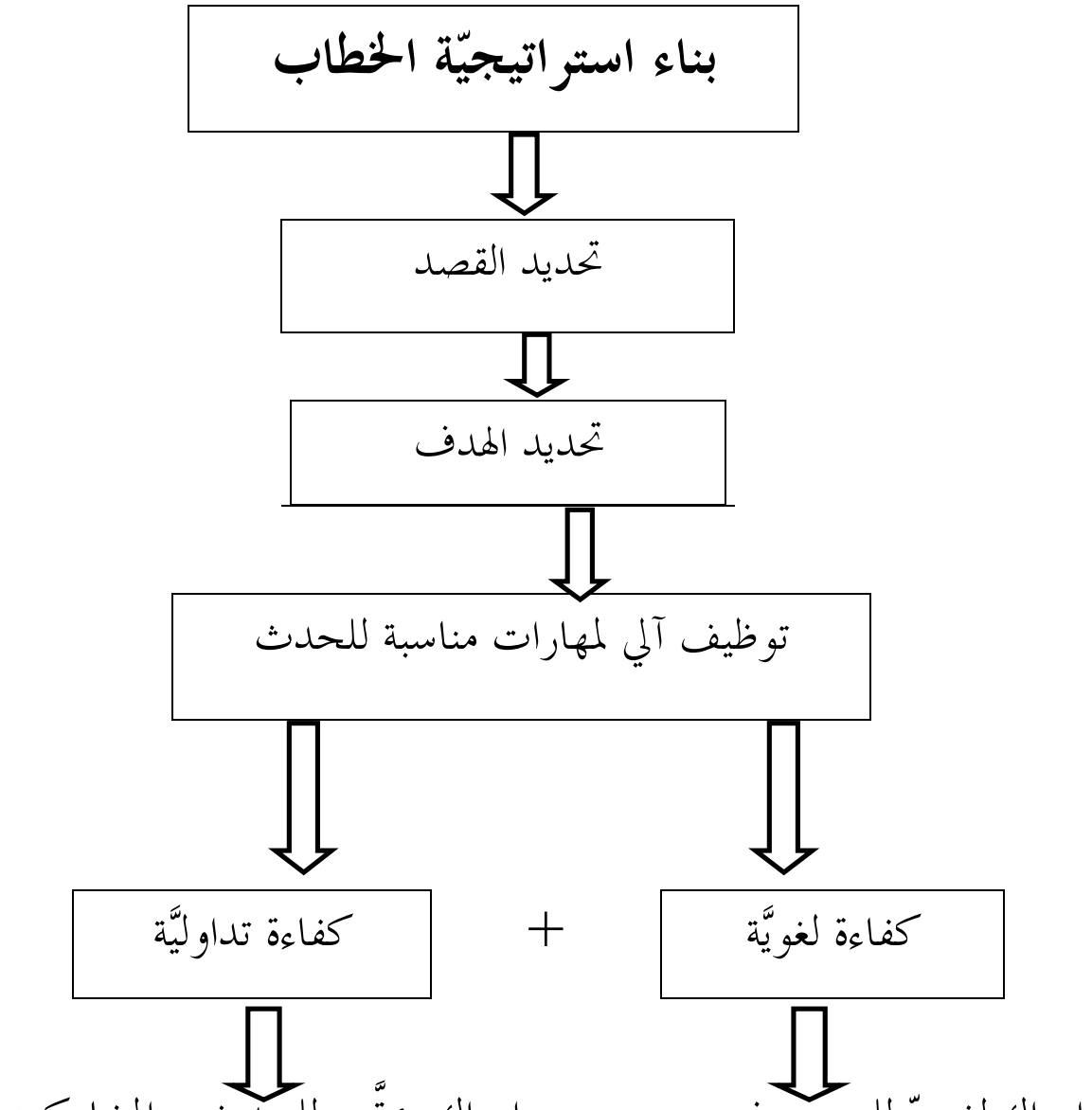
بناء استراتيجيّة الخطاب
تحديد القصد
تحديد الهدف
توظيف آلي لمهارات مناسبة للحدث
كفاءة لغويَّة
+
كفاءة تداوليَّة
إدراك لغويّ للنص و فهمه من المرسل والمرسَل إليهم
إدراك مؤقَّت للحدث و المشاركين (أي مختلف أنواع البيانات)

ب- استراتيجيَّة الخطاب وآلياته

I. الكفاءة التَّداولية والرحلة :

يعرف "*ديك*"[1] الكفاءة التَّداولية، على أنها مجموعة أنساق متشابكة، تنم عن خمس كفاءات أو قدرات هي:

أ- الملكة اللّغوية:

تتمثل في قدرة المتلفّظ على إنتاج وتأويل عبارة لغويَّة، ذات بنيات معقدة ومتنوعة، ذات صعوبات تواصليَّة أحيانا:

كقول أبي الحسن التَّامي الفاسي، للمقري ملغزا، في قصيدة طويلة:

1- أينَ لي ما اسمُ ذو حروفٍ ثلاثة

وفي العدِّ أربَى عن مِئتيْ وأكثرْ

2- يُرى من حروف العطف إن زال

ثلثه وإن زال ثلثاه تراه مصدرا

3- وإن تعكس التحريك من طرفيه قل

إذا أنت زدت الهمز والمد مصدرا

4- تخاله فعلا ماضيا إنْ عكسته

وإنْ تعكس الثلثين فاسما مصدرا

1- فان ديك : النص و السياق ، تر : عبد القادر قنّيني ص 255

2- المقري، الرحلة، ص200

لقد سمحت الملكة اللّغوية للشّاعر، ببلورة وإنتاج اللّغز، علما أن المتلقي سيعتمد على الملكة نفسها في حل شفراته... حيث يفصح البيت الأول، عن جواب اللغز فهو يتكوَّن من ثلاثة حروف. أما الشَّطر الثَّاني فيلمح إلى مجموع عدد حساب الحروف، وهو 200 بحساب المغاربة[1].

أما البيت الثاني: فمعناه أنَّ كلمة جواب اللّغز تصبح حرف عطف إن حذف منها الثلث كالتالي: أَمْ، وأمَّا إذا حذفنا ثلثيه أي حرفين فإنه يصير مصدرا = ألف، = ميم، = سين.

ويوضّح البيت الثّالث: أنَّ استبدال الحرف الأوَّل بالأخير مع إضافة الهمزة والمدّ يعطينا مصدرا وهو: مساء.

وفي البيت الرابع يدل على تحول لفظ جواب اللغز إلى فعل ماضي إذا عكست حروفه أمس = سئم، أما عكس الثلثين أي حرفين فقد يعطينا إسما: أمس = إسم

ب- الملكة المنطقيّة:

وهي قدرات المتلفظ الممتلك لمعارف معنية، اشتقاق معارف أخرى، عن طريق "قواعد الاستدلال التي تحكمها مبادئ المنطق الاستنباطي والمنطق الاحتمالي"[2].

1- بحساب الجمل: أ =.....م، -----س : -------- المجموع-------

2- عبد الهادي بن ظافر، إستراتيجيات الخطاب، ص57.

وهو ما قام بشرحه، د.طه عبد الرحمن، ضمن عنصر البناء والنظم"[1]، حيث ذكر خواصا خمسة للنَّظم هي:

1- خاصيَّة البسط

2- خاصيَّة التَّرتيب

3- خاصيَّة الرَّبط

4- خاصيَّة التَّوسيع

5- خاصيَّة التَّشكيل (أو التَّشاكل)

وقد تجلَّت الخاصية الأولى في ضرورة بسط أو نشر جميع عناصر النَّظم، أي معطياته وذلك بأن ينفرد المرسل ببسط بناء معرفي سالكا في هذا البناء مناهج مخصوصة يعتقد أنها ملزمة للمرسل إيه، وهي[2]:

أ- يعتقد المرسل صدق ما يعرض أو يبسط

ب- يلزم المرسل إيه تصديق عرضه.

ج- يقيم الأدلَّة على مضامين عرضه

د- يوقن بصدق قضايا دليلة وبصحة تدليله.

علما أن بسط المرسل لقضاياه، يعني شدَّة تعلق هذه الخاصيَّة، بالمنطق والرياضيات[3]، على اعتبار المنطق علم أنساق والرياضيات علم بنيات، وهذان العلمان يسمحان بتنفيذ "طريقة البناء على المسمات" وهي

1- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، صص 83/64.

2- ينظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد الكلام، ص39 بتصرف.

3- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص66.

طريقة استدلاليَّة* تستخرج وتشتقّ المعلومات عن طريق المعطيات الموجودة مثال:

جاء في الرّحلة على لسان أحمد باشا مرعش: "إذا أحبّ الله عبدا: علّمه من غير علم، وأعزَّ علمه من غير ما عشيرة، وأغنى من غير مال عبده المعنى. انتهى[1].

يلاحظ أن المرسل قد بسط دعوى، هي :" إذا أحبَّ الله عبدا... انتهى" لكنه نشر معطيات نظمه كالتالي:

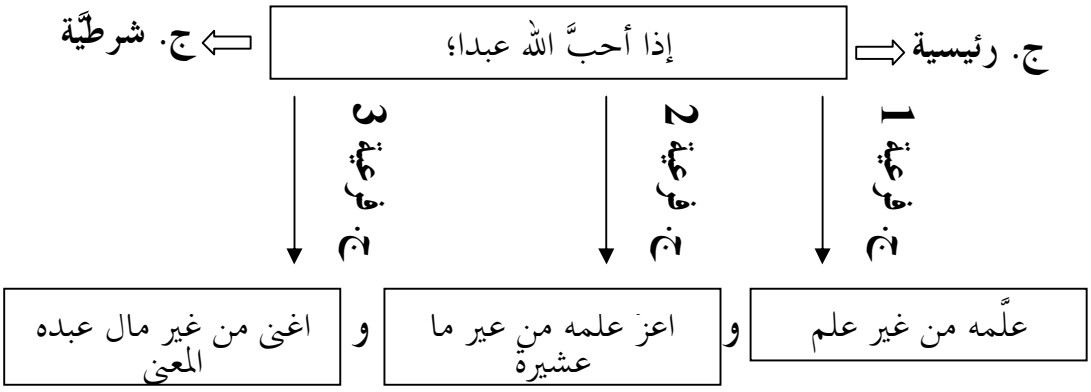

تمثَّل الجملة الرئيسية شرطا تحقق بـــ (إذا) وتدعمت هذه الجملة بثلاث جمل هي جوابات الشَّرط، وقد كان بإمكان المرسل الاكتفاء بجملة الشَّرط وإحدى جمل جواب الشَّرط، لكنه دعم دعواه بتفصيلات أكثر ليدلل على مدى حجم الكرم الإلهي مع عبد.

* جاء في دراسة عماري فضيلة تحت عنوان التَّداعي

1- أحمد المقري، الرحلة، ص128.

فالدعوى كلها لا تخلّ من حسابات منطقيَّة[1] وترتيبات بنائيَّة[2] وتفرّعات استدلاليَّة[3].

وهكذا تبدو خاصيَّة البسط واضحة عبر مقصودة لذاتها، لكنها ملكة تتبلور خلال التَّخاطب بشكل عفوي سيلقي ولا تنكشف إلا بعد التَّحليل والنَّظر لاحقا.

أما الخاصية الثَّانية واتي هي: التَّرتيب فإنها تظهر في نفس المثال السَّابق، في ذلك التَّرتيب الخطي، المبني على الجمع بين جملة سابقة وأخرى لواحق، حيث فتح الباثّ خطابه بقوله: "إذا أحبَّ الله عبدا"، ثم بيَّن وفسَّر كيف يكون هذا الحبّ عن طريق الأدلّة الاستنباطيَّة الثَّلاث أو التَّبريرات الثَّلاث، فالمقدّمة /القضيّة، "إذا أحبّ الله عبدا" مثَّلت المرتكز الذي انطلق منه المرسل على فروع متسلسلة مرتَّبة (معطوفة)، لأنَّها أضافت إلى المقدّمة زيادة في المعاني والدلالات والعلاقات والألفاظ، لقد أثَّرت الخطاب وعملت على توليده.

كادت هذه الجمل الفرعيَّة أن تتساوى في بنياتها، لولا ذلك التَّحايل البسيط الحادث في الجملة الثَّانية والثَّالثة بحيث زيدت عناصر جديدة عليهما.

1- ثلاث جمل هي جوابات لجملة شرط واحد.

2- تراكيب الجمل كما سيظهر لاحقا في خاصية الترتيب معمولة وفق معرفة نسقية منطقية

3- تفرعت الجمل الثلاث عن جملة الشرط عن طريق الاستدلال

فبالرَّغم من اشتراك هذه الجمل في الفعل/ الفاعل /المفعول به الجار والمجرور والمضاف إليه إلا أن ترتيبها قد اختلف اختلافا بظهور الزّيادة والتَّوسع في المعنى[1].

ج الشَّرط: (المقدّمة)	أداة الشَّرط + فعل + فاعل + مفعول به؛
ج.ج.ش(1)	فعل +فاعل+مفعول به+جار ومجرور+حرف نفي+ مضاف إليه
ج.ج.ش(2)	حرف عطف+فعل+فاعل+مفهول به+مضاف إليه+جار مجرور+ ما النافية+ مضاف إليه
ج.ج.ش (3)	حرف عطف+فعل+فاعل+جار ومجرور+مضاف إليه+مفعول به + مضاف إليه + نعت

أما خاصية الرَّبط، فقد وفرت الرَّوابط المتمثلة في (الواوين) في بداية الجملة الثَّالثة والرابعة، بينما لم ترتبط الجمة الأولى (جملة الشَّرط) بالجملة الفرعيَّة الأولى إلا بعلامة وقف، تمثَّلت في الفاصلة (،) فلماذا؟.

1- تظهر الجمل الفرعية متماثلة متقابلة متناسقة لكنها غير ذلك.

علمـــــــ/ــــــه من غير / علم

فعل + فاعل/ مفعول به/ جار ومجرور / مضاف إليه

و / أعز / علمه / من غير / ما / عشيرة

حرف عطف/ فعل+ فاعل/ مفعول به +/ جار ومجرور/ ما النافية/ مضاف إليه

مضاف إليه متعلقة بالإسم المجرور

و / أغنى /من غير / مال / عبد / ه المعنى

حرف عطف / فعل + فاعل/ جار ومجرور/ مضاف إليه /مفعول به/ مضاف إليه/ نعت

ببساطة، جملة الشَّرط جاءت مرتكزا أو مقدمة معلومة بينما تظهر الجمل الفرعية كجوابات شرط أي نتائج للمقدمة، لذلك كان من باب أولى أن يضع المخاطِب علامة وقف غير هذه، ألا وهي النَّقطتان التَّفسيريتان أو النَّقطة فاصلة (لعل السهو كان وراء هذا).

غير خاف ما لعلامة الوقف من دور في ربط التراكيب والجمل بل في تعيين قصد التَّواصل، فهي هنا، تؤسّس لوظيفة التَّفسير.

قد يقول قائل؛ إن الشَّرط حجاج وليس تفسير لكن الواقع هو أن الشَّرط يحتمل الحجاج والتَّفسير معا[1].

أما الواو، فقد اضطلعت بوظيفة دلاليَّة، هي التَّفصيل، لأن الكلام في الجمل الثَّلاث لم ينصرف إلى وجهة أخرى، سوى تدعيم ج. الشَّرط وبيانه.

وقد تحدث د.طه عبد الرحمن عن خاصيَّة التَّوسيع حيث قال: "حكمها أن النَّظم علاقة توجب تولد المنظومات بعضها من بعض بحيث يكون بعضها أوسع من بعض".

أما التشاكل: فهو أقرب إلى الاستدلال التَّمثيلي الذي يبرز "كيف أن المنظومات يحفظ بعضها البعض حفظا، يجعل بعضها يجتمع فيما بينه ليشكل منظوما واحدا[2] !! قال المقري[3] عن.....

طه عبد الرحمن ، اللسان و الميزان ص

1- إن الجملة: "إذا أحب الله عبدا؛ علمه من غير علم..." تفيد التفسير مع قيام الشَّرط وحدوثه في نفس الوقت.

2- طه عيد الرحمن، اللسان والميزان، ص80.

3- الرحلة، ص198.

أ- وإنَّ زَمانًا قد وُجِدتُمْ بِه
لَذاكَ دَهْرُ ثغرُهُ أشنبُ

ب- وإنّ أرْضًا قد مَشيْتُمْ بِهَا
لتلكَ أرضٌ تُرْبُهَا أخصبُ

ج- وإنّ بيتًا قدْ سَكَنْتُمْ بِهِ
لَذَاك بيتُ دُونَهُ الكَوكَبُ

د- وإنّ عبدًا قد نَظَرْتُمْ لَهُ
لذاكَ عبْدٌ سَعْدُهُ أقْرَبُ

تتشاكل هذه الأبيات في البناء، وفي تماثل صورها، فهي تراكيب نحوية وبلاغية مميزة بقوة التَّوكيدات (أن + لام التوكيد) + (اسم الإشارة للبعيد)..

لقد تمظهرت التَّراكيب النَّحوية كالتالي:

الصَّدر: جملة إسمية

إن (ناسخ) + إسم إنّ + أداة تحقيق + فعل ماضي + جار ومجرور.

العجز: جملة إسمية في محل رفع خبر "إن".

لام التَّوكيد + إسم إشارة للبعيد (وهو مبتدأ) + خبر

أما التَّشاكل على المستوى البلاغي فقد تمثل في وجود مجموعة كنايات في الأشطر الأوى للأبيات، ووجود مجموعة تشبيهات في الأشطر الثَّانية للأبيات.

مثال:

"إن أرضا قد مشيتم بها "

إن عبدا قد نظرتم له" } **كناية عن الحظوة والأثرة**

لتلك أرض تربها مخصب

لذاك بيت دونه الكوكب } **كناية عن الخصب ثم العلو**

أما مجموع الأبيات فعبارة عن تشبيهات بليغة.

وإن زمانا قد وجدتم به ← مشبه

لذا زهر ثغره أشنب ← مشبه

والعلاقة بعد هذا –بين الصّدور والأعجاز- تقابلية سببيَّة، حيث تتقابل الأبيات في بنائها البلاغي والنَّحوي درجة التَّماثل كما تمثّل الأعجاز نتائج للأسباب المذكورة في الصدور، لأنه يقول مثلا:

إن نظرة الممدوح إلى العبد هي التّي حولته إلى عبد قريب السَّعد والفرح، وهكذا.

ج- الملكة المعرفية:

إذا كان المقصود بالملكة اللّغوية ، هو التَّحويل على الرصيد اللّغوي وامتلاكه فالتَّصرف فيه إبداعا وتوليدا وتحويرا هو دليل على وجودها... فإنَّ الملكة المعرفيَّة ترتكز أساسا على قدرة المرسل على استمداد معارفه وتصيّد تجاربه المحيطة به. وبالتَّالي، إنَّها قدرته على كشف علاقات عالم محسوس ماديّ والقيام بتصويره ووصفه وربما الحكم عليه... وهو -في هذا- يشترك المرسِل إليه في فك رموز خطابه، لاشتراكه معه في هذه الملكة.

لهذا يصعب على المرسِل تسويق خطابه إذا صعب على المتلقي امتلاك نفس الملكة.

إن توظيف المرسِل لشاهد في سياق جديد مرهون بمعرفة المتلقي للسّياق الأصلي للشَّاهد وإلا غمض الأمر والفهم، فالتَّوظيف الجديد للشاهد قد يحمل إشارة ما أو إضمارا أو تلميحا، ووحدها قدرة المتخاطبين المتكافئة في الملكة المعرفيَّة تُجلي الغموض فتسمح بالتَّحليل والفهم وسرعة الالتفات إلى أبعد الدلالات.

من ذلك، ما قاله أبو القاسم المالقي لأحمد المقري، حيث لم تطرح الصعوبة في فهم التورية[1]:

* التورية : هو ذكر المتكلم لفظا مفردا له معنيان قريب ظاهر غير مراد و بعيد خفي هو المراد برع فيه شعراء مصر و الشام في القرن 7 و 8 ه ، ينظر علي الجارم ، البلاغة الواضحة مع دليلها ص 277 .

1- أتَى بِرِيَاضٍ في عِياضٍ وِرْدُهَا
مَظالُم كانت قَبل مُعضلة الدَّاء

2- وفاضَتْ بنيلِ العلم منه أصابعٌ
ومن عجبٍ فيضُ الأصابعِ بالماءِ

3- خَليلِي هذه معجزاتٌ لأحمدَ
فمِنْ أجلها قد ردْدَ عينًا إلى الرَّاءِ[1]

لذلك يصعب على المتلقي إدراك دلالة الخطاب بدون امتلاكه لسلسلة معارف هي:

1-أن المقري ألف أزهار الرياض في ذكر القاضي عياض.

2-أن المقري يدعى أحمد المقري

3-أن الرَّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله من أسمائه أحمد، وأن الماء قد فاض من بين أصابعه في "معركة أحد" عندما احتاج المسلمون إلى الماء رحمهم الله تعالى بهذه المعجزة.

4-أن الرَّسول صلّى الله عليه وسلّم وعلى آله، قد ردَّ عين قتادة بن النّعمان* الصّحابي الجليل فالملكة المعرفيَّة، هي التي تسمح بتدارك

1- الرحلة: ص50.

الالتباس وفك الغموض الذي قد يقع خلال تداول الخطاب ولكن هل تعمل هذه لوحدها؟!.

د- الملكة الإدراكيَّة :

الإدراك عملية ذهنية نفسية تتيقظ خلالها الحواس وتنتبه، فتومض الأفكار وتحس وتتلمس الأشياء.

إنها قدرات عالية، يتفاوت في امتلاكها البشر؛ لكن الإجماع قائم، على دور ملكة الإدراك في التفطن والملاحظة والربط خلال عمليَّة التَّخاطب.

فالتَّأويل جار والخطاب سار، ولاحظ لباثٍ أو متلقٍ لم يسعفه إدراكه لمعارف اللَّغوية واستعمالاتها المتفاعلة، المتحرّكة، داخل السّياقات المختلفة والمقاصد المتجددة.

والمثال أعلاه يوضح كيف أن امتلاك الملكة المعرفية واللّغوية لا تكفيان لفهم الخطاب المتداول.. فتظافر هذه الملكات كلها هو الشّرط السّليم للتَّمكن من التَّبليغ والتَّفاعل وهما هدفان أساسيَّان في الخطاب التَّداولي:

---

* في غزوة أحد أصابت سهم عين قتادة بن النعمان –رضي الله عنه – فسقطت ، فأخذها الصحبي الجليل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فردها مكانها بيده الشريفة فصارت أصح عينيه . عن الرحلة ص51 عن أبي النعيم الإصبهاني ، دلائل النبوَّة ج2 ص483

2- أحمد المقري : أزهار الرياض في ذكر القاضي عياض ، المؤلف في 5 أجزاء .

إن قوَّة إدراك المتلقّي للمعارف أعلاه وربطها بما جاء في الأبيات الثَّلاث السالفة ستبلور المعنى التالي:

هي أن المقري قد ألَّف كتابا أسماه **"أزهار الرّياض في ذكر القاضي عياض"** الذي كان يقاضي بين الناس بالعدل..ثم يحمل البيت الثَّاني تضمينا لأن الذي فاضت أصابعه بالماء هو النَّبي عيه الصَّلاة والسَّلام وهو محلّ العجب لكن الشَّاعر قصد أحمد المقري واصفا فيض العلم من أصابعه لأنَّها وسيلة الكتاب وآلتها.

أمَّا في البيت الثَّالث فالنورية واضحة في إشارته لقصة الصَّحابي قتادة بن النّعمان وهو المعنى القريب الظَّاهر لكنه يريد به أمرا آخر هو أن المقرّي بتأليفه لكتاب **"أزهار الرّياض في ذكر القاضي عياض"** قد أزاح الغبار عن شخصية هامة هي بمثابة النَّبع أو العين لمن يريد أن يرى الحقيقة، ويبحر.

كما أثبتت التَّورية مرَّة أخرى في الشَّطر الثَّاني من البيت الثَّالث بأن يكون قصده عياض = رياض، أي أنه بشأن معرفة وعلم ومخزون حكمة وأنوار...

من العبث القول إذا، أن الملكات الأربع سمحت بتبلور هذا الفهم، وإلا فما دور الملكة الاجتماعيَّة.

هـــ الملكة الاجتماعيَّة :

إن قولنا "فلان اجتماعيّ" دليل على كونه يملك هذه الملكة، فهو من الذكاء بحيث يعرف ماذا يقول ومتى يقول ولمن وأين؟! فحسّه المرهف وذكاؤه المتّقد وقدرته على التّكيف مع الموقف تجعله ناجحا وبامتياز في صنع علاقات اجتماعيَّة رائعة، بأبعاد مستقبليَّة ومصالح عامَّة أو خاصَّة.

لهذا يحتاج المرسل إلى هذه القدرات لكي يختار بعناية عباراته في التَّوقيت المناسب وللشَّخص المخصوص.

إنَّ كثيرا من علاقاتنا مع النَّاس، تندثر وتموت أو تنقطع فجأة إثر خطأ كبير في التَّلفظ التَّداولي... بل إنَّها أزمة كثيرًا ما تحدث بين الدّبلوماسيين أنفسهم لذلك أصبح الخطاب خطّة استراتيجيّة لها أهداف ومقاصد وميكانيزمات ومهارات ولي أدل على هذا من الكفاءة التداولية بملكاتها الخمس (الملكة اللغويَّة، المنطقيَّة، المعرفيَّة، الإدراكيَّة، الاجتماعيَّة).

وإذا كانت هذه القدرات / الملكات تتعاون لإنشاء تواصل ناجح محكم فإنها تتفاوت[1] في حجم عملها خلال التَّداول، ذلك أن درجة النّضج –نضج هذه القدرات[2]– عند النَّاس متفاوتة.

1- لم يفت الجرجاني ولا الجاحظ الحديث عن تفاوت الملكات وبالتَّالي تفاوت مستويات التَّواصل **"فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشيّ من النَّاس كما يفهم السّوقي رطانه السّوقي، وكلام النَّاس في طبقات كما أن النَّاس أنفسهم طبقات**... "الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص144.

2- يقسم "ديك" هذه القدرات إلى نوعين: القدرة اللّغوية (النَّحو والمنطق) والقدرة الآليَّة (السّياق، المعرفة، الإدراك، الاجتماع).

II. الكفاءة اللغوية :

1- المستويات اللّغوية

أ- المستوى المعجميّ :

كل تطوّر مرهون بالكلمات ، والكلمات في تطور مستمر ، فهي تبحث دوما عن الانعتاق و الحريَّة . العجز عن ملاحقة حركتها و تطورها يؤدي إلى التَّطرف و الاختلاف ...

الكلمات كائنات حيَّة ، ينعشها الاستعمال و يثريها ، ألا ترى إلى كلمة "عين" كيف تنعتق من مدلولها الوضعيّ البسيط ، إلى معان أخرى مجازية كقولهم "عين" و يقصدون بها "منبع الماء" أو يقصدون بها "الجاسوس" في قولهم "فلان عين على فلان" .

يوفر المستوى المعجمي ثروة لغويّة بالغة الأهمية للمرسل ، تمكّنه من شرح وتبيان الدَّلالة بل اختيارها بدقة تسمح برصف مترادفات أو استعمال أدوات ، ذات بعد تداولي كالإشاريَّات مثلا :

ذاك

- دلالة لغوية ثابتة = مشار إليه ، مفرد مذكر مسافة متوسطة البعد .
- دلالة لغوية متحركة .

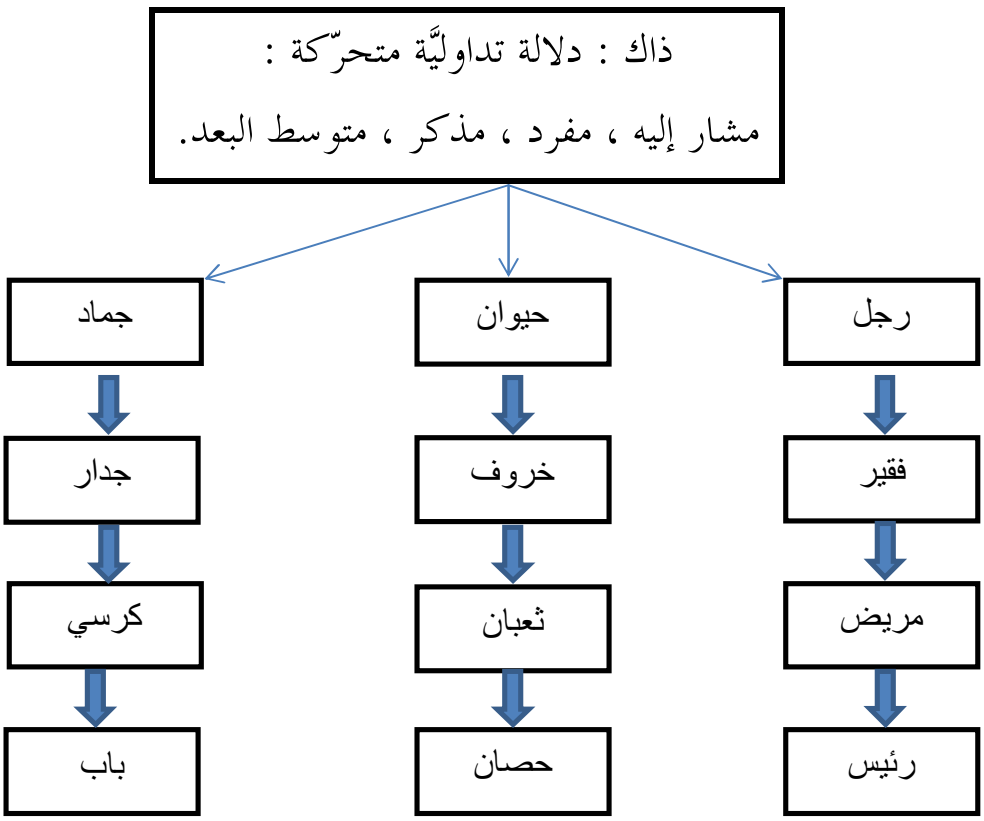

فبدون معرفة السّياق يستحيل معرفة دلالة الضَّمائر أو الإشاريَّات .

و هكذا تعني كلمة "علاَّمة"[1] في الرّحلة أكثر من شخص فهي تحيل على المقري مرة و تحيل في رسالة هذا الأخير على مفتي مكة ابن مرشد...

ب- المستوى التركيبيّ :

على المستوى التّركيبي ، يبدو النَّص صرحا دلاليا قائما على مجموعة تراكيب حيث ينهض بخطاب تداولي وفق ما يريده المرسل من خلال التَّعبير عن قصده و قد شرح الجرجاني ، صاحب نظرية النظم كيف "**أن**

1- الرحلة / ص 241 – 245

الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، و لكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد"[1].

بل إن الجرجاني يضيف قائلا " **الألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب**"[2].

فالحديث هنا يخص دخول الكلمات في علاقات تركيبية داخلية حقلها الانساق البنائية التي تشكل الهيكل المعرفي كالنحو و الصرف .

وقد أطلق الرافعي[3] على قوة التماسك بين تراكيب القرآن الكريم روح التراكيب ذلك أنه تحدث عن مدى ترابط و تماسك تراكيب النص القرآني و تعلق بعضه ببعض بدون روابط واضحة أي لفظية ... فقد تكفي المناسبة أي المقام لربط النص و تماسكه .

أما القرطاجنّي[4] و العسكري[5] فقد تفردا بحديثهما عن التماسك و قوة التئام الخطاب القرآني ...

في الرحلة يظهر تماسك التراكيب و تداعيها كالتالي :

1- صبحي إبراهيم الفقي / علم اللغة النصي بين النظرية و التطبيق . ص 79

2- الجرجاني / أسرار البلاغة ص 495

3- الرافعي / إعجاز القرءان و البلاغة النبوية ص 270

4- ينظر صلاح فضل / بلاغة الخطاب و علم النص ص 264

5- المرجع نفسه ص265

أقسام النَّص :

البداية :

" و قلت بالمغرب مداعبا لأخينا الكاتب الوجدي صاحب القلم الاعلى و قد احتفل ببناء الدار إلا باب المستراح .

و مُستراحٍ حسنٍ قد يُسّرتْ اسباب

لكنَّ كمالَ حسنهِ إذا أُقيمَ بابُهُ"[1]

الكلمات المسطَّرة توضح المعنى لأنها تكشف عن مختلف السّياقات ، و هي وسائل ربط و تفسير .

سياق الوجود توضّحه كلمة مغرب و هو اسم مكان (بلد) . السّياق النَّفسي توضحه لفظة مداعبا أما سياق المقام فتل عليه العبارة التالية : "أخينا الكاتب الوجدي صاحب القلم الأعلى": حيث نتعرف على مقام المرسل إليه كما نتعرف على اسمه و شخصه أما سياق فيعرفنا بالمناسبة و يفسرّها بعبارة :" احتفال ببناء الدار إلا باب المستراح " فالمستراح قاعة كبيرة مخصَّصة للراحة و ما ينقصها هو الباب ... يتوضَّح إذا بيت للمقرّي أعلاه .

كشفت السّياقات المتعاضدة على تماسك النص و وحدة موضوعه لكن تراكيبه المبنيَّة بشكل معين سيدّل عليه نسيج النَّص التَّالي :

" و قلت له : لم يبق بعد الأكل إلاَّ السَّماع .

1- الرحلة ص181.

فقال : يا ليتهم كانوا لذاك السّراع .

فقال سيدّي علي الشامّي :

و بادروا تشنيف أسماعنا بنغمةِ العودِ و صوتِ اليراعْ

و قلت :

طردتنا الشمس من هذا المكانْ .

فقال الشامي:

و اطمئن القلب منَّا و استكانْ .

فقلت :

بوجود العالمِ الحبرِ الّذي قد غدا إنسان عينِ الزمانْ

و قلت ملغزا في كتاب:

يا فاضلَ العصرِ الذي ذهنُهُ يفكُّ ما استصعب من كلِّ باب

و واحدَ الدَّهرِ الذِي عِلْمُهُ بمحكمِ التَّفصِيلِ فاق العبابْ

فقال :

و منْ إذا استهديتَ من فكرهِ بخريدةٍ أبدَى لبابَ اللُّبابْ

و من إذا خطت (...) انسى عماد الدِّين و ابن الحباب

فقلت أنا :

يا اسم حوى علما به يهتدِي من قد غدَى في جهلهِ في تبابْ

إنْ أبدلتَ بالعينِ فاءً له يحولُ عن حالِ الرِّضى للعتابْ

أو صيَّرت ميمًا غدا نصحُهُ يهديكَ من بعد الصدِّ للمتابْ

و من أزالَ الصَّدر من جسمهِ بات له قلب حليف اكتئاب

فقلت :

فإن يكن في حفظكم شرحه أبدوه أولا فانظروا في كتاب

انتهى و قد أجاب عنه الفقيه سيدي عبد السلام بن الناصر حسبما في غير هذا المحل، و الله أعلم بالصَّواب"[1].

يتمظهر النص بنائيا كالتالي : فيكشف عن مستوى تركيبي :

الأفعال: و قلت – و قلت له – فقال – فقال – و قلت – فقال الشامي – فقلت – وقالت- فقال – فقلت – فقلت .

تكشف الأفعال هنا عن تناوب دفة الكلام بين المقري و الوجدي و علي الشامّي .

كما يظهر التَّرابط و التَّلاحم كالتالي :

النص الأول :

"و قلت بالمغرب ... أقيم بابه "

النص الثاني :

"وقلت له لم يبق بعد الأكل...في كتاب. انتهى"

النص الثَّالث :

"و قد أجاب عنه الفقيه ... و الله اعلم بالصواب"

1- الرحلة، ص

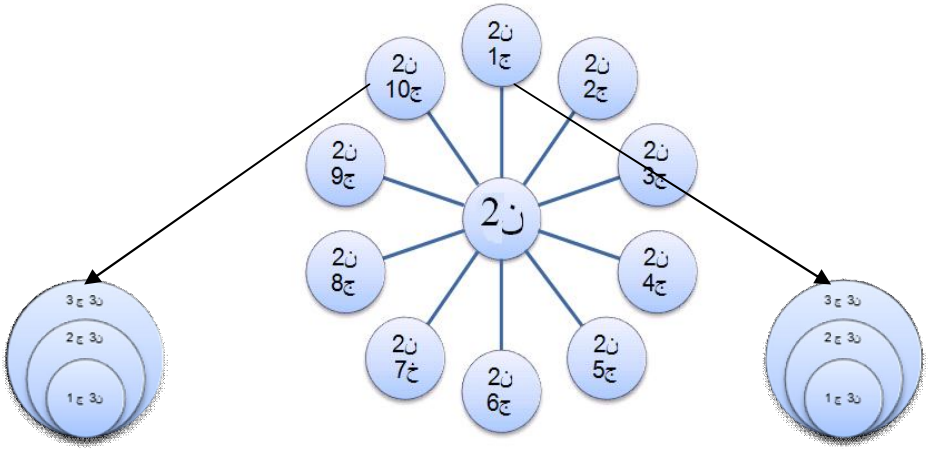

ن1 هو النَّص الأساسي الذي انطلقت منه بقية الوحدات اللّغوية متماسكةً بفضل الرابطين الواو والباء وقد أسهما في جمع الجمل جمعا يصبّ و يقدّم ل ن2 ألا و هو نص المداعبة أو المجاملة، لكن الملاحظ أن ن2 يعتبر ركيزة أو محور تولَّدت عنه وحدات و تشظَّرت في شكل 10 جمل أفضت بعد ذلك إلى ن3 كنتيجة لما سبق ،ن2 الذّي أفضى إلى ،ن3 كنتيجة لما سبق .

عامل آخر يسهم في تماسك النص مثلا :

النص النواة1 الذي تلعب فيه الإحالات دورا هاما فيسمح بإلتحامه : "و قلت بالمغرب مداعبا لأخينا الكاتب الوجدي صاحب القلم الأعلى و قد إحتفل في بناء الدار إلا باب المستراح ".

عملت حروف العطف والجر والضمير المتصل والمستتر على تحقيق النصية تماما كما عملت الإحالات القبلية والبعدية أما علاقة البدل بالمبدل

1- بنظر الأخضر الزناد : نسيج النص ص

منه و النعت بالمنعوت و المضاف بالمضاف إليه فلم تحتاج إلى روابط لفظية لأن العلاقة هنا مضمرة و قوية.

ج- المستوى الصرفي :

تتحقق الكفاءة اللغوية عن طريق المستوى الصرفي ايضا فتوظيف إحدى الصيغ الصرفيـــة المناسبـــة لبناء استراتيجية محكمة في التخاطب : كاستعمال صيغ المبالغة أو صيغ البناء للمجهول أو صيغ الفاعل او المفعول تنطوي كلها على قصد* وهدف** معينين .

فالمسألة ليست مجرد حشو أو صدفة ...

لقد جاء في متن الرحلة رسالة على لسان عبد العزيز القشتالي إلى المقري : " ...**كتبه المحب الشاكر عن ود راسخ العماد ، ثابت الأوتاد مزهر الاغوار و الأنجاد** (...) **وعلا كعب الرامح والأعزل** (...) **الكاتب البارع أبي الحسن سيدي علي** (...) **الصافي المناهل ، العذب الموارد و إني قائم** (...) **أن المحب الفقيه سيدي محمد بن يوسف طلق اللسان بالشكر صادح على أيك الثناء...**" [1].

إن توظيف صيغ المفاعيل في هذا النص أفاد دلالات مختلفة يحاول الجدول التالي إبرازها:

* القصد هو النية أو المرمى .

** الهدف هو سبب الخطاب .

1- الرحلة، ص194.

الصفحة	السطر	العبارة	الفعل	إسم الفاعل	الوظيفة
194	11	العلم الزاكي سيادة العالم	غرس تمشي	الزاكي العالم	الحالية الرتبة
194	12	العلماء الأعلام	تمشي	الأعلام	الرتبة
194	13	إذا إستطار بفكره الوقاد سواجع السجع	إستطار	سواجع	سبب
194	16	سيدنا الفقيه الحافظ حامل لواء الفتيا و مالك الملكة في المنقول و المعقول	أنادي (مضمر) أنادي (مضمر)	الحافظ الحامل مالك	الرتبة و الحالية الرتبة الرتبة
194	19	المحب الشاكر عن ود	كتب	الشاكر	السبب
194	19	الراسخ العمادي ثابث الأوتاد	كتب	الراسخ الثابث	نتيجة نتيجة
195	20 21	الكاتب البارع ابن الحسن	رسم رسم	الكاتب البارع	صفة رتبة

تفيد المفاعيل كما تبين أعلاه وظائف شتى لم يحصر الجدول إلا بعضها فهي "تفيد السبب والغاية والنتيجة والحالية والزمان والمكان والصفات والمقابلة والترتيب وترتبط ارتباطا متينا بالفعل أي بالمسند الذي يعتبر مرتكز الثقل في السياق و المحور الأساسي الذي ترجع إليه جميع عناصر التركيب مما يكسبة وظيفة رئيسية "[1].

1- المنصف عاشور / التركيب عند ابن المقفع في مقدمات كليلة و دمنة ص40.

د- المستـــوى التَّنغيمـــي :

تسمح خبرة المرسل بتوظيف كل المستويات، إحداها المستوى التَّنغيمي رغبة منه في الدَّلالة على معنى ما ، فلا يقولنَّ قائل ، أنَّ علم البديع مجرد زخرف أو "**فضلة يمكن الاستغناء عنها، كما ذهبت إلى ذلك أغلب المؤلّفات البلاغية في استهانتها بقسمة البديع.**[1] "

لقد أثبت الباحث، "مختار حبار" من خلال دراسته للإيقاع الدَّاخلي، أنَّ الدَّرس البلاغي الجرجاني قد أهمل دراسة المستوى النَّغَمِي في نَظريَّةِ النَّظمِ حيث،" **أعطت النسق الأول وظيفة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وشطت مع النسق الثالث فجعلته فضلة بإعطائه وظيفة تحسين الكلام وتحليته بعد تمام وضوح دلالته وتطابقه مع مقتضى الحال.**[2]"

وعليه فالمظاهر الصَّوتية الّتي تجسّد المستوى التَّنغيمي ليست مجرد الوزن أو القافية وليست إيقاعا داخليًّا أو خارجيًّا وليست سجعا أو جناسا فقط لكنَّها أكثر من ذلك بكثير فهي : ذلك التَّوزيع المنظَّم وفق قاعدة رياضيَّة منطقيَّة ما، يشكّلها الباث تشكيلا عفويا سليقيا نظرا لكفاءته اللّغوية، وقد يتمظهر هذا التَّوزيع المنظم في شكل يدعَى توازن وحدات أو تشطيرا

I- مختار حبَّار : الشعر الصوفي القديم في الجزائر ص 348 .

II-المرجع نفسه ص 21 .

وازدواجًا أو مراعاة نظير، تشاكلاً أو تقابلاً، أو وحدات التعديد وتنسيق الصِّفات*

ولأنَّ المستوى النَّغمي قد يتبلور في النَّثر أيضًا وبأشكال وآليات مختلفة مثل السَّجع وتقارب نسب طول الجمل والتَّقابل وغيرها، من ذلك ما جاء في الرّحلة على لسان الإمام مفتي الحرمين بن مرشد سنة 1035ه."**يا مغدق سحاب البلاغة على رياض الطّروس، ومشرق شهاب البراعة في عياض الدروس، ومفتق أكمام الأذهان عن زهر العلوم الزاهر، ومفجر أنهار الأفهام من بحر الفنون الزاخر،**"[1]

قراءة متفحّصة لهذا المقطع، توضح آليات النَّعم فيها، فقد تناسبت الجملة الأولى مع الثَّانية من حيث الطّول ، كما اشتركتا في كلّ أواخر الحروف، بل إنَّ أوزان الكلمات تتقابل وزنا.

مغدق=مشرق=مفعل

سحاب=شهاب=فعال

البلاغة= البراعة= الفعالة

*ينظر : مختار حبَّار الشعر الصوفي القديم : لقد أفرد الباحث دراسةً متميزةً عن الإيقاع الدَّاخلي و جماليَّاته ذكر خلالها هذه المصطلحات التصنيفية و أفرز أشكالا إيقاعية بذلك مما يفتح مجال دراسة واسع لقصيدة النثر بل و أشكال الإيقاع في النثر المرسل عموما و في النص القرآني أيضا، حيث يعد الموضوع جديدا على الأدب العربي

1- الرحلة ص 226 .

كذلك واصل المرسل توزيع ألفاظه بنفس النِّظام لكنَّ بعض حروف أواخر الكلمات شطَّت عن التَّماثل إلى التَّقارب(تقارب مخارج الحروف، الميم والنون). علمًا أن حرف النّداء الياء(يا)= لعب دور المرتكز أو المحور الذي استندت عليه و قامت هذه الجمل المتناسبة الطّول و المتشابهة المخارج.

و لكنْ لأيّ قصدٍ بلورَ المرسل هذه التَّشكيلات ؟ هل كان ذلك لمجرد خلق نغم يثير السامع و ينبّه مداركه ؟ أم إنَّ الجرس الموسيقي المتكاثر في النَّثر والشّعر يكفل إيقاعًا موسيّقيًا له وظائفه الدَّلالية كالتَّوكيد وتوضيح التَّعبير؟!...

بل إن الإيقاع ينهض بوظائف جمالية عدَّة، لم يتم سبرها كلّها ، خاصّة في النَّثر. ومع ذلك فإن للمستوى النغمي دوره الآخر في اتّساق التَّراكيب وانسجام المعاني . وغير بعيد عن هذا يظهر التَّوكيد والتّكرار وبالتَّالي التّنغيم كآليات هامة في بناء استراتيجية الإقناع.

III- أفعال الكلام :

لقد صاغ "أستين" نظريَّة الأفعال الكلاميَّة و اوجد لها تصنيفا بات يعرف باسمه .

لكن جهود " ليتش" أفضت إلى مراجعة التصنيف وتصحيحه ، وتأكيد علاقتها بالهدف الاجتماعي الذي هو ركيزة "مبدأ التأدّب" . هذا المبدأ الذي يقضي بضرورة تعاونِ طرفيْ الخطاب ، فالمرسل إليه قد يثير المرسل حيث يعمد هذا الأخير إلى اختيار استراتيجية أخرى جديدة لإقناع المرسل إليه مثلا ..

فالتَّعاون مبدأ واضح – و لا شك- في عملية التداول لكن ما علاقة الاستراتيجية بالهدف ؟ و ما علاقة الهدف بالفعل الكلامي ؟ و هل الهدف هو القصد ؟

قطعا ، ليس الهدف هو القصد . لأن الهدف هو السبب الذي من أجله اختار المرسل استراتيجيته أي خطته. كأن يكون التَّبليغ هو هدف المقرّي في كتابته للرّحلة وأن يكون الهدف الكلّي للرّحلة هو : إبراز قدراته ومركزه العلمي .

أما القصد فهو الإمتاع بإثراء ساحة الأدب بدفع جديد من أدب المغاربة مطعَّما بأدب المشارقة، وهكذا، يلاحظ الاختلاف الكبير بين القصد والهدف .

أما علاقة الإستراتيجية بالهدف ، فهو أنَّه أحد عناصرها الهامَّة ، مثله مثل القصد والآلية والسِّياق بل إن الهدف هو السِّمة التي تلحق الاستراتيجية فتسمى باسمه (استراتيجية الاعتذار أو التَّبرير مثلا)

ولعلَّ أهمَّ سؤال هو : علاقة الهدف بالفعل الكلامي ، حيث يعتبر الهدف هو الفعل الكلامي نفسه و إلاَّ فما معنى أن يكون الغرض البلاغي للأمر التماسا أو دعاء ؟ . و ما معنى أن يكون الغرض من الاستفهام تعجّبا أو تهديدا أو زجرا ؟...

إنَّ خروج الأفعال عن حقيقتها إلى مقاصد[1] أخرى و على غرار تقسيم "أوستين" و "سورل" ، جعل "محمود أحمد نحلة" يميّز الأفعال الكلامية وفق التقسيم التالي[2]:

أ- الإيقاعيات :

و تتمثل في حدوث الفعل بمجرَّد النّطق به مثل أفعال البيع و الشّراء و التَّنازل و الزَّواج و الطَّلاق و التَّوكيل...

و قد كان الشاطبيّ[3] أحد علماء الشريعة الذين وضعوا لهذه الأفعال شروطا صارمة لجواز صحتها و صحة مقاصدها

1- ينظر السكاكي / مفتاح العلوم ، ص 147

2- خليفة بوجادي / في اللسانيات التداولية ص 212 إلى 216 عن محمود أحمد نحلة/ آفاق جديدة في الفكر اللغوي المعاصر ص 98 إلى 104

3- ينظر أحمد الريسوني : نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي – كقول الشاطبي توافق المقاصد مع أوامر الشارع الله عز و جل و ما ينتج عنه من أمان و عدم تناقض مع الشريعة ، ص 163 إلى 170 .

ب- الطلبيَّات :

و هي الأفعال الدالة على الطلب وهي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمخاطِب المخوَّل أصلا لإصدارها

ج- الإخباريَّات :

و هي الأفعال الواصفة للأحداث في العالم الخارجي

د- الالتزاميّات :

و هي أفعال يقصد بها المتكلم فعل شيء على وجه الالتزام و التعهّد بها كأفعال الوعيد و العهد و الإنذار و هي لذلك وثيقة الصّلة بالمتكلّم

هـ- التعبيريَّات :

و يعبّر بها عن المشاعر و الأحاسيس في مختلف حالات النَّفس الشّعورية مثل الغضب و الحزن و الفرح إلى جانب أفعال الثَّناء و الاعتذار و الحسرة و المواساة .

لذا كانت الأفعال الكلامية وثيقة الصّلة بالتلفّظ فلا يمكن تصوّر تلفّظ بعيدا عنها ، لأنّ ردّة الفعل في حال السّؤال أو الأمر أو النَّصيحة أو الشّرط تتحقق سريعا و بعد التلفّظ مباشرة[1]

و تتجسّد عينة من أفعال التّلفّظ في من متن الرّحلة كالتّالي[2]

1- يرى Berrondonner في كتابه Elements de pragmatique linguistique ص80 ،81 أن الفعل الكلامي هو فعل التلفظ و أنه حركة تتضمن نتيجة أي رسالة مشفرة .

2- الرحلة ص141 ، 142

التَّعبيريَّات: الحمد لله – صلى الله- سلّم – أينعت – أورقت – أضاءت – أشرقت – اضطرمت – أحرقت – أوجبه إليكم لا تحتجب – لم ير – يخفاكم- حفظكم .

الإخباريَّات: يظهر- حصل – يقع – لم يزل – يرتاد – يسدّ – يجب- يقوم – أسَّست – زكّت – كانوا – اقتضى نظر- لا تحتاجون – تشيرون – يسكّ – يجمد

الطَّلبيَّات: وصل الله – لا يخالطه – أعانه – أدام-أعانكم- أقر الله- بلّغكم – نصره الله – أيّده الله – أعانه – فتح له – يعود – ستشاهدون – شاء - يصحّح – يقوّيها-يشبع – يرويها- التزم –اشترط – ثقوا – تلقّوا –شدّوا –اقصدوا –يمّموه – و اعملوا – صلّى – أكرموه –أفتلوا – أبرموه – يعينكم- ينجدكم- يبقى- يطيل.

الإيقاعيّات: أوصى – حلف – كتبوا إليكم .

يستخلص من النّص أن الوظيفة الطَّلبيّة التي توفّرت على أعلى نسبة من الأفعال قد ساهمت و دلّت على قوّة انجازيّة لفعل الدّعاء و التّمني خدمة لاستراتيجيّة التّضامن و التّعاون بل مساندةً لأفعال الطّلب و أفعال التّعبير عن المشاعر و الأحاسيس أمَّا الإيقاعيّات فهي أقلّ حضورا من غيرها أمّا الإخباريّات فقد قامت بوصف الحدث المسرود في النّص و تلاحظ قوّة ارتكاز المقرّي على الخلفيّة الدينيّة في معظم أفعال الطّلب.

IV- القصد :

ما الذي يقصده الباث ، عند التَّلفظ ؟

و هل تطيق لغته فلا تملك إلا معنى واحدا أم أن دلالات اللغة أو الرسالة التي يرسلها الباث للمتلقي ، أوسع بكثير من أن تحصى ؟

إذا ، ما الذي يثري معاني و دلالات الرسالة / الخطاب ؟ هل هو القصد ؟!

أم أن السياق هو الذي يحدد القصد و يسمح له بتعدد الدلالات ؟!

ليست اللغة تعبيرا حرفيا* مباشرا..

بل إن ثراءها و تنوع دلالاتها محكوم بقصد المرسل خاصة وعناصر السياق عامة.

لقد انتبه الجرجاني[1]-رحمه الله- إلى دور الخيال ومختلف العمليات الذهنية في خدمة و بلورة البنية العميقة (المدلولات) بل أن ميلاد صور البيان كان بفضل فاعلية الخيال ودور الإدراك و الإنفعال ... فلولا هذه العمليات لثبتت الألفاظ على حالها ،في مستوى " الشيئية " لا تخرج عنه .

ولا يخفى على أحد، تلك الضجة التي أحدثها المنكرون للمجاز في القرآن. والتي تصدَّى لها كلّ من الجاحظ، وابن قتيبة وابن الأنير وغيرهم ،

* اللغة الشيئية هي لغة المستوى الأول للفظ.

1- محمد سالم سعد الله/مملكة النص بتصرف ص46/45

حيث أنكر فريق من العلماء ، المعاني الخفية للألفاظ مما أوقعهم في متاهات أعجزتهم عن فهم نصوص القرآن الكريم بالدرجة الأولى .

فقد ثبت أن النحو الذي يحمي اللغة من أي فساد أو تحريف .. هو نفسه قناة التواصل التي تبلغ المعنى بأمانة على المستوى الصوتي والتركيبي بل أن النحو ينظم الألفاظ داخل السياقات [بواسطة الإعراب] حرة، عديدة، مما يثري اللغة و يوسع المدلولات و يعدد المقاصد .

- فعبارة مثل :
- يالك من ذكي!

تكشف عن مقصدها المتباينة بالنظر إلى سياقها و علاقة المتخاطبين..

فهي تتراوح بين الإعجاب الصادق و بين السخرية أو التعجيز ...أو غيره.

يقوم المرسل ببلورة المعنى مركزا على قصد معين ، وذلك بانتخاب آليات واختيار مهارة ما وفق سياق ما . فينشأ التَّفاعل بين طرفي الخطاب، الباث والمتلقّي، فتتوضح المقاصد ويتمّ الإبلاغ. لهذا قامت البلاغة العربية على الاهتمام بالسامع أو المخاطب .

فقد ذكر ابن رشيق :" **أوَّل ما يحتاج إليه الشاعر – بعد الجد الذي هو الغاية، وما فيه الكفاية، حسن التأني والسياسة، وعلم مقاصد القول، فإن نسب ذل و خضع، وإن مدح أطرى و أسمع، وإن هجا أخل و أوجع ، وإن فخر خب ووضع ، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حن ورجع، ولكن غايته أغراض المخاطب كائنا من كان ، ليدخل إليه من بابه ، و يداخله في ثيابه ، فذلك هو سر صناعة الشعر و مغزاه الذي به تفاوت الناس و به تفاضلوا**"[1].

وقد أورد القرطاجني في كتابه " سراج البلغاء " كثيرا جدا من مسائل البلاغة المراعية لمفهوم التداول أي علاقة المتخاطبين وأثر الخطاب على المتلقي كحمله على حب الشيء أو كرهه، أو تحريك مشاعره بالغضب أو الفرح ، قصدا* مقصودا .

ولا ينجلي القصد إلا بالتخيل والمحاكاة. لذلك يشيد العلماء بعنصر الخيال في التأثير على النفوس / وحملها على تبني مقاصد المخاطبين:

1- خليفة بوجادي / في اللسانيات التداولية ص 230 ، عن ابن رشيق العمدة ج1 ،ص 199

* ذكر القرطاجني مسائل كثيرة مثل التسويم و التحجيل ...كآليات يوظفها أهل الصناعة البلاغية بقصد التأثير على المخاطب و حمله على اتخاذ قرار أو موقف محدد من طرف الباث .

و في هذا ألفت مئات الكتب العربية شارحة تداولية النحو و البلاغة مثل كتب التفاسير و الفقه و أصوله .

يقول ابن عربي " **إن هؤلاء الذين يصفون الخيال بأنه خيال فاسد لا يدركون حقيقته ، ذلك أن الخيال إذا أدرك شيئا فإنما يدركه بنوره ، و النور لا يخطئ في كشفه عن الأشياء .**

وإذا كان هناك خطأ فلابد أن يكون لسبب آخر إذ الخطأ وليد الحكم، والخيال لا يصدر حكما، بل هو نور يكشف ستار الظلمة الذي يحجب الأشياء[1].! "

و إذا كان شرف التخيل واضحا عند ابن عربي ، فهو مهم جدا عند أهل المعرفة و كذا أهل العرفان ..

فالتخيل آلية و مسوغ لصناعة الصورة البيانية التي تربط نفسية و ذهنية المتكلم بدرجة توتر الإحساس وتصعيده عند المتلقي فيقع في نفسه موقعا هاما ، ينصاع للتصرف و فقه ...

يقول حازم في هذا :" **يكون النظر في صناعة البلاغة من جهة ما يكون عليه اللفظ الدال على الصور الذهنية في نفسه و من جهة ما يكون عليه بالنسبة إلى موقعه من النفوس من جهة هيآته و دلالته**[2]..."

- لكن ما الذي يجعل القصد قوي التأثير ؟

1- جابر عصفور / الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي عند العرب ص49.

2- حازم القرطاجني / منهاج البلغاء و سراج الأدباء ص17

إن التخيل لوحده لا يكفي لبلورة القصد ، فمعاضدة[1] التخيل بالإقناع هي التي تدفع بالمتلقي إلى التصديق أو الامتثال أو الانفعال بخطاب الباث . بل إن حازم القرطجاني كشف في ما أسماه بالتسويم و التحجيل* عن براعة المتبني في إمتاع سامعيه و إقناعهم عندما قال :

".. **فأما من يردف الأقوال الحرية بالخطابية فإن الأحسن له أن يفتتح الفصل بأشرف معاني المحاكاة و يختمه بأشرف معاني الإقناع، وإلى هذا كان يذهب أبو الطيب المتبني رحمه الله**[2] ."

ولا يعمل التَّخيل والإقناع وحدهما على بلورة القصد فالقوَّة الشَّاعرة عند حازم و التي يفسرها جابر عصفور ب "فاعليَّة التَّخيل" المرتبطة ارتباطا وثيقا بالقدرة على الكشف على علاقات جديدة تجانس بين المتفاوت و المتباين في وحدة تخيليه جديدة هي إحدى عناصر وآليات تشكيل القصد و توضيحه .

1- حازم القرطاجني / منهاج البلغاء و سراج الأدباء ص299

* التسويم : حسن إفتتاح القصائد قصد تنشيط المتلقي و إثارته

التحجيل:ختام القصائد بالحكم أو بالإستدلال على حكم . يظر حازم القرطاجني منهاج البلغاء صص295-301

2- المرجع نفسه ص289

أي أن استثارة المعاني من مكامنها و استنباطها من معادنها يحتاج إلى "قوة شاعرة" تربط و تكشف وتجانس نسب الأشياء في علاقات جديدة مدهشة مثيرة للانتباه أو الفضول، محركة للمشاعر مُمَرِّرَةً للمقاصد ، صانعة للتفاعل بين طرفي الخطاب .

يكفي القول أن سياقات الخطاب المختلفة (سياق النص، سياق الوجود، سياق النفس، سياق...) كلها مجتمعة تعمل على توضيح القصد وتسويقه إلى المخاطب . فلا يمكن غض الطرف عن أحد هذه العناصر، بدعوى أن القصد يعمل لوحده دون غيره .

تتطور المقاصد عندما تتطور اللغة من المستوى الشيئي إلى المستوى المجازي.

ففي حين لا تحتاج فيه اللغة الحرفية ذات المستوى الأول إلى مقاصد، لوضوحها. فإن اللغة الرفيعة المستوى تحتاج إلى شرح الدلالة لمعرفة القصد.

أي فك التشفير. ويصبح فك التشفير أمرا ضروريا في مجتمعات المافيا أو الجوسسة، لأن المتخاطبين في هذه الحالة قد تواضعوا رموز لغوية لا يفهمها غيرهم .

إذا كان هدف اللغة هو التبليغ ، فإن هدفان آخران يترائيان من وراءها هما الإقناع والإمتناع. وهكذا يتبلور القصد ضمنيا في اللغة التي تُبلِّغُ و تُقْنِع و قد تمتِّع أيضا.

على أنَّ بعضا من علماء الشريعة قد جعلوا المقاصد أساس الخطاب. لأن الكفاءة اللغوية ليست هي مدار معرفة قصد المرسل فمعرفة القصد، هي معرفة ماذا يعني المرسل بخطابه و ليس ما معنى ما يقول !

و"القصد" الذي كان مدار بحوث كثيرة ، لعلماء أفذاذ شغلهم تفسير القرآن الكريم، وعلوم الفقه وأصوله... وشغلتهم بلاغة اللغة، هذا "القصد" بين كيف ترتقي اللغة من مستواها التعاقدي التواضعي إلى مستوى أعلى وأرفع ، يسمح بتعدد المقاصد و اختلاف السياقات ...

لا أدل على ذلك ، من دراسة الشاطبي –رحمه الله– للمقاصد وعلاقتهما بالقراءات القرآنية والمسائل الفقهية. فاحترم القرار* والجواب في علم القراءات شرط أساسي يحدده القصد والمقام** في الآية القرآنية .

أما دراسات ابن جني و الزمخشري، السكاكي والجرجاني ... وآخرون فقد تقدمت بالبحث التداولي أشواطا بعيدة ذلك أنه تم دراسة اللغة اثناء استعمالها منذ البداية، " **ومثال ذلك ما يذكره السيوطي في اللغة أنها تؤخذ استعمالا لا قاعدة**[1] ". بل إنه يقول: " **إذا أتاك القياس إلى شيء ما ، تم سمعت العرب قد نطقت فيه بشيء آخر على قياس غيره ، فدع ما كنت عليه**"[2] .

* القرار و الجواب : طبقات إنخفاض و علو الصوت تتماشيان مع القصد و السياق .

* *المقام : سلم موسيقي يخص الموسيقى و كذلك القراءات مثال : مقام رصد ، مقام نهوند ....

1- خليفة بوجادي / في اللسانيات التداولية ص153

2- المرجع نفسه ص ن.

ويعني هذا عناية العرب باللغة خلال التوظيف والاستعمال أي التداول. لعل عنايتهم بالمخاطب دليل على ولوجهم هذا الباب فقد قال الباقلاني في تعريف البلاغة : " **الإبانة في الإبلاغ عن ذات النفس على أحسن معنى ، و أجزل لفظ ، و بلوغ الغاية في المقصود بالكلام ،فإذا بلغ الكلام غايته في هذا المعنى كان بالغا و بليغا**"[1].

" **فمدار بلاغة المتكلم قائم على حسن التأليف، وسلامة الأداء، وإدراك المقاصد ، و مطابقة مقاله للمقام**"[2].

إذا كان الشاطبي قد عد القصد هو المعنى اللغوي نفسه فإن "ابن جني" قد لفت الانتباه إلى ضرورة التعبير بالقول عن الاعتقاد الكامن في النفوس .

ربما كان هذا، هو السر وراء اعتناء العرب بإصلاح الألفاظ وتقويمها لتعبر عن المعاني المبتغاة " **فاللفظ وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد و المعنى المقصود**"[3].

لكن اللغة والسياق علاقة المتخاطبين هي التركيبة التي تتجسد بها المقاصد فقد يطابق القصد اللفظ، فيقصد به ما تقوله الألفاظ على وجه القطع و اليقين. وبمآزره القرائن الحالية و اللفظية ...

1- الباقيلاني /إعجاز القرءان ص217

2- خليفة بوجادي / في اللسانيات التداولية ص160

3- عبد الهادي بن ظافر الشهري / استراتيجية الخطاب ص194

كقول المقري :

"و لما قدم علينا حضرة تلمسان، الفقيه سيدي علي بن محمد علي أبهلول في حدود سنة 1010هـ ، ذهب معنا في جملة من العلماء[1]..."

فالقصد هنا لا يتعدى الألفاظ و مدلولاتها لأن المقري يذكر لنا المكان: خزانة الكتب المشهورة بمدرسة "أولاد الإمام" بتلمسان – الزمان 1010هـ. أطرف المتخاطبين أحمد المقري والفقيه سيدي علي بن محمد بن علي أبهلول، و جماعة أصحاب ..

سياق المقام : رتبة المتخاطبين : علماء.

وهكذا يتضح القصد من قول الفقيه سيدي علي بن محمد بن علي أبهلول:

خزانة للكتب مملوءة بالزبل في مدرسة ابن الإمام[2]

فهو عالم جليل ، يسوءه منظر الزبالة في مكتبة مدرسة وصل صيتها إلى المغرب الأقصى لذا يعبر عن الحادثة باشمئزاز ..

وبالمقابل، يبرد المقري على الفقيه ، بما يرفع من قيمة العلماء ويبرئ ساحتهم من مثل هذه الأعمال ، عندما يقول :

وذَلك يقضِي أنَّ أرجاءهَا لمْ يبقَ فيهَا فاضلٌ و السلامُ[3]

1- أحمد المقري / الرحلة –ص140

2- المرجع نفسه ص ن

3- المرجع نفسه ص ن

فردَّ المقري يدل على مهارته و فطنته عن العالم الذي تأذى بهذه الحالة التي يحاربها أهل العلم و يعدونها اعتداء صارخا على العلم و أهله .

فلقد توضح قصد المرسل (أبهلول)، بسبب ذكر القرائن (المكان ، الزمان، الأشخاص...) كما توضح قصد المرسل الثاني (المقري) بذكر نفس القرائن .

حيث كان قصد الأول التذمر مما رأى و الثاني كان قصده مجاملته برفع المسؤولية عن العلماء الأفاضل بما فيهم المخاطب .

وإذا كان " القصد " يتجسد باللغة ، لأنه يدل على ما في النفوس مبطنا أو مبيتا مضمرا أو محذوفا فإن التفرس في مصالح المخاطبين ،كحدس المخبأ، افتراض البعيد أو الشك في المصرح به ، آليات جيدة لمعرفة "القصد" فالمتلقي الفطن والمرسل الحذق كثيرا ما يتخاطبان، تخاطبا تداوليا راقيا بسبب تحميلهما لقصدين[1]-مثلا- في آن واحد بدون وجود دليل على أن أحدهما هو الصحيح.

- جاء في متن الرحلة :

- خليلي هذي معجزاتُ لأحمدَ

فمِنْ أجلهَا قد رَدْدَ عينًا إلى الرَّاءِ[2]

1- ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري / استراتيجيات الخطاب ص 196.

2- الرحلة – ص50

إذا عرفنا موضوع المقطوعة ومناسبتها وهي تأليف المقري لكتاب "أزهار الرياض في مدح القاضي عياض"[1] وأن أحد معاصري الكاتب قد اطلع على الكتاب فأعجبه كما أعجبته سيرة وأدب القاضي نفسه. فأنشد المقرّي مقطوعةً هذا أحدُ أبياتهَا.

الملفت للنظر* هو تحميل قصدين اثنين للبيت علما أننا لا نستطيع إقصاء أحدهما.

فأحمد صاحب المعجزات هو النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، بل إنه من ردَّ عين الصحابي الجليل بكفه الشريفة بعد أن سقطت في غزوة أحد." قد رَدْدَ عينًا " لكن القصد الآخر أو المتوازي هو أن أحمد هو أحمد المقري و المقصود بالمعجزات هو علمه و تآليفه الغزيرة التي أشاد بها العديد العديد من لعلماء الأفاضل... فحاصل القصد إذا أن الشاعر يشيد بعلم المقري، وأنه من بين المعجزات كتابه أزهار الرياض في ذكر القاضي عياض، لذلك قال : قد ردد عينا أو وضع حرف العين مكان الراء ، حيث صار عياض معروفا مشهورا صار يرى و يعرف .

- رياض ==> عياض .

1- أحمد المقري أزهار الرياض في ذكر القاضي عياض ، كتاب في 5 أجزاء

* قال علماء البلاغة أن هذه تورية و قالوا عن التورية أنها ذات قصد واحد لكن الواضح هنا يستحق الإنتباه فهو وجود قصدين متلازمين لا دليل على خطأ أحدهما. فكلاهما وارد في البيت .

إن مثل هذه المقاصد "المزدوجة" تعد إحدى آليات استراتيجية التلميح، كما تفصح عن فن المراوغة في التداول .

و جاء في متن الرحلة :

1- إذا كنتُ مع ضعفِي و قلَّةِ حاصلِي

أجودُ بموجودِي لباسِطِ كَفِّهِ

2- فما ظنُّكُمْ باللهِ يا قومُ فابسِطُوا

أكفَّ الرَّجاءِ فالجُودُ من بعضِ وصفِهِ[1]

يتصوَّر قارئ هذين البيتين أن رجلا ضعيفا فقيرا ، يسدي –على الدوام– يده بالعطاء للناس وهو في البيت الثاني يدعوا متلقيه لبسط أياديهم بالدعاء لأن الله عز وجل كريم جواد بل الجود صفته تعالى والشاعر في الواقع لم يقصد هذا المعنى ، اللغة و حدها هي التي سمحت بهذا الفهم لكن القرائن تكشف عن فهم آخر هو المقصود :

تصدَّرت الجملة التالية البيتين :

" و مما يكتب على قمقم[2] "

ثم ذكر المقري المقطوعة أعلاها مما يعني تشخيص القمقم من ناحية.

1- أحمد المقري الرحلة ص172.

2- المرجع نفسه ص ن.

ثم التعبير عن وظيفته فهو قمقم ، لا يمكن سحب ما بداخله إلا ببسط اليد . ثم يوظف الشاعر " الإلتفات* " فيستغل فكرة الجود بناء استراتيجية توجيهية تتمثل في قيمة أخلاقية هي الدعاء.

- و المقطوعة ، تدخل في باب الألغاز أو ما كان يعرف بالأحجية لأن البيت الأول لا يعرف المتكلم و إنما يلمح إليه فقط .
- وعليه ، فإن القصد أنواع[1] :

1- قصد مطابق للفظ ، قد يصل حد اليقين.

2- قصد لا يطابق اللفظ و المعنى الظاهر لأمرين إما أنه (المخاطب) مكره أو مجنون .... أو أنه (المخاطب) يغرض أو يروي أو يلغز أو يؤول .

3- قصد مزدوج يحتمل إرادة المخاطب له كما يحتمل إرادته غيره .

1- ينظر عبد الهادي بن ظافر الشهري / استراتيجيات الخطاب ص196

* الإلتفات هو أن يكون المتكلم آخذا في معنى فيعترضه إما شك فيه و ظن أن رادًّا يرده علية أو سائلا يسأله عن أسبابه فيلتفت إليه بعد فراغه منه ليجلي الشك أو يؤكده . ينظر شهاب الدين الحلبي : حسن التوسل إلى صناعة الترسل ص 224

V- الإشاريات :

لا يتضح مدلول بعض الكلمات في اللغة، لأنها غير مرتبطة بمدلول ثابت. السياق هو الذي يوضحها كعلامات في الخطاب .

لذلك سمى النّحاة هذا النّوع من الألفاظ بالمبهمات. وهي أساسا أسماء الإشارة لكن بعضهم يضيف إليها الضمائر، لأن دورها كدور أسماء الإشارة بالغ الأهمية في تكوين نسيج الخطاب. فهي ذات وظيفة نحوية ، دلالية و احاليّة أدوات تحقق الاتّساق و الانسجام في النّص /الخطاب .

و الإشاريَّات أنواع ، قلّما يتم التداول بدونها، (أنا ، هنا ، الآن..) فهي متعلقة بالذات المتكلمة (المرسل) وبالمكان والزمان ...قد لا توظف صراحة في الخطاب ، لكنها موجودة –حتما- بشكل ضمني .

إذا كانت الإشاريَّات تكفل ترابط الخطاب، فإنها – في الدراسات الإسلامية العربية – قد ظهرت كمحيلات عديدة المحيلات إليها .

لقد بين المفسرون ، مدى ترابط النص القرآني الكريم عن طريق ضمائر تحيل إلى أكثر من محال إليه في نفس الخطاب[1] وهو وجه من وجوه الإعجاز لكن بلغاء العرب استفادوا كثيرا من القرآن الكريم .

1- ينظر محمد الخطابي / لسانيات النص صص 173-186

- كما أن الإحالة نوعان :

أ- إحالة قبليَّة : و هي أن يحيل الضمير أو اسم الإشارة إلى محال إليه متقدم في الرسالة .

ب- إحالة بعديَّة : و هي أن يحيل الضمير إلى محال إليه مرتب بعده .

و تلعب إشاريَّات دورا هاما في خلق انسجام جميل يتفادى التكرار والحشو إلى – إبداع خطاب ذا دلالة و رونق - .

كما أن تعدد الإحالة، يلعب دورا هاما في تعدد المقاصد في الخطاب الواحد .

جاء في متن الرحلة على لسان ابن مرشد ، ثناء على المقري هو :

" يا مَنْ إذا ذُكرتْ الأعيانُ كانَ واسطةَ عقدهمْ الفريدِ، وإذَا شكرتْ الإخوانُ كانَ رابطَ مجدهمْ الطارفِ و التَّليدِ ، وإذَا اشتملَ نادٍ على مُنْتَدِينَ كانَ المشارَ إليهِ ، و إذَا حَلَّ هادٍ بمهتدينَ كانَ المعوَّلَ عليهِ، أعيذُ مجدكَ الشامخَ و عزَّكَ الراسخَ بآياتِ الفرقانِ ، و أعيذُ ذلكَ التعويذَ ليسلمَ جمعُ شملكَ من المفرقانِ* ، وأزفُّ عرائسَ التهانِي ... [1] ".

جليّ للعيان دور هذه الإشاريَّات المتمثلة في ضمير الرفع المنفصل (هم) والضمير المتصل به و (كاف الخطاب) و اسم الإشارة للبعيد (ذلك) .

* المفرقان ، هكذا جاءت في الرحلة

1- أحمد المقري / الرحلة ص 230 .

وهذا الجدول كفيل بتوضيح أكبر :

اللفظة	الإشارية	نوعها	المحيل إليه	نوع الإحالة
عقدهم	هم	ضمير رفع منفصل	الأعيان	قبلية
مجدهم	هم	ضمير رفع منفصل	الأخوان	قبلية
إليه	ه	ضمير متصل في محل جر إسم مجرور	من (الإسم الموصول)	قبلية
عليه	ه	ضمير متصل في محل جر إسم مجرور	من	قبلية
مجدك عزك	ك ك	كاف الخطاب كاف الخطاب	من من	قبلية قبلية
ذلك	ذلك	إسم إشارة للبعيد	التعويذ	بعدية
شملك	ك	كاف الخطاب	من	قبلية

نلاحظ كيف توفر الإشاريات على المرسل كثيرا من التكرارات المملة، وكيف ينجح المتلقي في فك الشفرة الخاصة بكل عنصر إشاري وذلك بإدراكه للإحالات وربطه المحمولات. فالاسم الموصول كان محور المحمولات المتتالية في الخطاب و عليه بنيت .

الفصل الثالث

طرائق بناء الاستراتيجيّة عند المقـــرّي

أ- استراتيجيّة التّعاون/ التّضامن

ب- استراتيجيّة التّوجيه

ج- استراتيجيّة التّلميح

د- استراتيجيّة الإقناع

أ- استراتيجيَّة التَّعاون/التَّضامن:

كيف يتقرَّب المرسل من المرسل إليه؟ و لا يتعالى عليه؟

كيف تزول الفروق بين المتخاطبين؟ وكيف يحفظان مسافة صغيرة بينهما؟ ما نوع العلاقة بينهما وما درجة قوَّتها؟

هل يستطيع المرسِل تأسيس علاقة -عبر الخطاب- خالية من أيّ غرض نفعي؟ عبر أيّ مهارة، يمكن ذلك؟ وما هي آلياتها؟

كيف يسمَّى هذا النَّوع من التَّواصل؟ وكيف يستمّر ويترقَّى؟

تتبلور المهارة التَّضامنية، عبر الرَّحمة تبلورا متبادلا بين طرفيّ الخطاب، ومع ذلك فالمقرّي أقوى مرسلٍ موظفٍ لهذه المهارة، كثافةً لأنَّه يسعى إلى تأسيس علاقة تضامنيَّة قويَّة، بينه وبين مراسيله عن طريق خطابات تلفظيَّة بعيدة عن أيّ غرض نفعيّ أو مصلحة خاصَّة بل تظهر مراسلاته متزَّهة عن النَّفعية، قريبة إلى الطَّبيعة الإنسانيَّة كاشفة عن عقيدة إسلاميَّة وأخلاق إيمانيَّة[1].

فالمقرّي يتحرَّك في تلفّظه ضمن حيّز ثلاثي الأبعاد:

1- البعد الاجتماعيّ وما يفرضه من معايير وأعراف.

2- البعد الثَّقافي وما يفرضه من أدبيَّات.

3- البعد الرَّسمي السّلطوي وما يفرضه من بروتوكولات

وهكذا تجلَّت مهارات[2] شتَّى، ضمن الخطاب التَّلفّظي للرّحلة مثل:

1- "أربعة يسود بها العبد العلم والأدب والفقه والأمانة. وقيل من كثر أدبه شرف وإن كان وضيعا وساد وإن كان غريبا": ينظر ابن المنقد، لباب الآداب.

2- ينظر: عبد الهادي بن طافر الشهري، الإستراتيجية الخطابي، ص264.

أ- مهارة التَّأدب التَّبجيلي (كالاحترام والتَّعامل الرَّسمي، التَّلميح، الصَّمت...).

ب-مهارة التَّأدب التَّضامني (كالصَّداقة الحميمة، الانتماء إلى الجماعة، التَّصريح، التَّأدب الإيجابي...

يلاحظ ترصّف الألقاب الفخمة في خطاب المقرّي إلى محمد بن يوسف التَّاملي المرَّاكشي، إذ يقول في نصّ الإجارة:

"**فارس ميدان البراعة، أستاذ المقرئين المجوّدين الفقيه الأستاذ سيدي محمد بن يوسف التَّاملي المراكشي..**"[1].

فالتَّودد جليّ في صورته المثلى، لباقته من ناحية وتواضعه من ناحية أخرى قد أثمرا مهارة التَّأدب التَّبجيلي، ذلك أن المقرّي يجيز المرسِل إليه، ممَّا يعني أنَّه أعلى مرتبة، لكنَّه يتنازل —عن طيّب خاطر- عن مكانته الرَّسمية (كشيخ مجيز) إلى مرتبة أقل رفعة، معليًا من قيمة المرسِل إليه، في رسميَّة تكشف عنها الألقاب العلميَّة التبجيليَّة لتالية: "**أستاذ المقرئين المجوّدين، الفقيه الأستاذ...**".

وفي موضع آخر يخاطب المقرّي، عبد العزيز القشتالي، قائلا:

"**الوزير الجليل الكبير، الشَّهير الصَّيت بالمشارق والمغارب**"[2].

فهذه الألقاب الرَّسمية، تفضي إلى توطيد العلاقة —حتما- وترسيخها، مع الاحتفاظ بمسافة صغيرة بين طرفي الخطاب.

1- الرحلة، المرجع السابق، ص192.

2- الرحلة، المرجع السابق، ص194.

ويلاحظ في قول أبي الحسن على الشَّامي، مخاطبا المقرّي: "**سيّدنا المفتي الإمام الرَّئيس**"[1].

قوله: "**المفتي، الإمام، الرَّئيس**"... يجمع ثلاثة ألقاب علميَّة رسميَّة.

وفي المقابل، يقول أحد مراسلي المقرّي عن نفسه: "**الحقير عبد الباقي الإسحاقي المنُّوفي**"[2].

بينما نعت المقرّي بما هو:

"**شيخ الإسلام، ملك العلماء، الأعلام، أبو العبَّاس شهاب الدّين فلان المغربي..**" [3]. فقد نعته بثلاثة ألقاب علميَّة كبيرة تدلّ على مكانته الرَّفيعة، ويشهد وجود الألقاب على استمرار حضور التَّراتبية على الرّغم من التَّأدب التَّضامني بين المتخاطبين لأن الفوارق ليست منعدمة، فهناك اعتبار خفيّ لسلطة محتشمة لطيفة..

بل إنَّ هذه الألقاب، تمرير ذكيّ من ناحية، وترسيخ جلّي لقواعد تربويَّة بين فئة العلماء والمتعلمين، يكفل استمرار نمط حياتي لها.

أما توظيف الكنية: "أبو الحسن"[4] و"أبو العباس"[5] فدليل آخر على التَّضامن والرَّغبة في بسط بساط الودّ والمحبَّة والقرب.

1- الرحلة ، ص193.
2- الرحلة ، ص180.
3- الرحلة ، ص111.
4- الرحلة، ص122.
5- الرحلة ، ص120.

بينما لا يوجد أثر لهذه المسافة، في خطابات أخرى، خالية من الرَّسميات، فمهارة التَّأدب التَّضامنيّ، تكشف عن علاقة صداقة حميمة، كقول المقرّي مخاطبًا أبا الفضل الصّديقي[1]:

"يا وحيدًا صار للفضل أبَا

كَلِفَ القلْبُ سواكُم فأبَى"

وبنفس روح الصَّداقة الحميمة، يخاطب ظهير الدّين الحسني المالكي، المقرّي قائلا:

جديرٌ بالعلومِ لهُ جوابُ

يفيدُ الحكمَ عن معنَى السؤالِ

بنورِ العلمِ يشبهُ ما تناهَى

منَ الأفلاكِ تزهُو باللَّيالِي

إذَا ما قيلَ للعلماءِ نجومٌ

فأحمدُ بالتَّناهِي كالهلالِ[2]

يسعَى الباثّ إلى تقوية أواصر الحبّ والتَّقدير والاحترام من خلال مدحه وثنائه على المقرّي وقد مدحه بأجمل الصّفات؛ التَّفوق العلميّ، وهو ثناءٌ وتودّدٌ مطلوب في بيئة ومجتمع المتخاطبين، لأنَّ تبجيل العلماء واجب عقائدي له وزنه في الإسلام، إنَّهم "العلماء –ورثة الأنبياء–"[3]، والباثُّ

1- الرحلة ، ص180.

2- الرحلة ، ص 186.

3- حديث ديني شريف.

من أهل العلم أيضا، لذلك يؤسّس لقصد آخر غير تقوية روابط الصَّداقة ألا وهو ترسيخ عادات الاحترام والتَّقدير لفئة العلماء وحفظ مكانتهم في المجتمع . علما أنَّ حفظ هذه المكانة، خلق إيماني يشرّف فاعليه، بل إنَّ من أهمّ مقاصد هذه المهارة هو تعديل السّلوك الإنسانيّ وتدعيم قواعد التَّربية الحسنة، فالكلمة الطيّبة[1]، لها مفعول السّحر على النّفوس، ولها دورها في خلق أجواء المودَّة والحبِّ، كما للتَّواضع دورٌ حاسمٌ في رفع مكانة صاحبه وإعلاء شأنه..

التَّواضع الذي قد يصل درجة نكران الذَّات، وهو نكران لا يحطّ من قيمة صاحبه، إذا تجسَّد عبر مهارة التَّضامن بآليَّات محكمة قويَّة...

كما يكشف الخطاب التَّالي عن آليَّات لا تقلّ قيمة في تأسيس مهارة التَّضامن:

"وكتبت إلى صاحبنا العلاَّمة الشَّيخ فتح الله البيلوني وهو في القدس الشَّريف ما صدره: أتوسَّل إلى من شرَّف المواطن القدسيَّة، وخصَّها بالتَّجليات الرَّحمانية الإنْسِيَّة، أن يعمّر بيوت العلوم، المبنيَّة أفعالها على الفتح، ويفيض غيوث الفهوم اللَّدُنيَّة المتحليَّة صدورها القاضية بالمنّ والمنح، على حضرة علاَّمة الوقت بلا مكابر، وارث الفضل كابرا عن كابر، مالك أعنَّة البراعة ومجريها كيف شاء في ميدان اليراعة، بديع العصر بل الدّنيا وحائز قصب السَّبق بلا ثنيا، مولانا فلان حرس الله ساحته من

1- الرحلة ، ص155.

الأغيار، وأحيى* به مآثر سلفه الأخيار، وأهمى** إليه بعد السَّلام اللاَّئق بالمقام، والدّعاء الشَّافي من السّقام، بالدّخول في سلك من قال ربّي ثم استقام وهي طويلة..." [1].

لقد وظَّف المرسِل كلمة "صاحبنا"، قاصدًا بذلك تقريب المرسِل لأنَّ الصَّاحب ليس شخصا غريبا أو بعيدا.

ثم أضاف إلى الكلمة "نا" الّتي تدلّ على الجمع أو العظمة؛ جمع العلماء أو معناها شخصيَّته العظيمة، الرَّاقية... مهما يكن المعنى فإنَّ إضافة الضَّمير المتَّصل "نا" دلَّ على الحميميَّة واتّسام العلاقة من أوّلها بالقوّة والمحبّة والاحتواء... ولكن لماذا وظف المقرّي "نا" ولم يوظف "ي" = صاحبي، خاصة وأنَّه عُرِفَ بتواضعه وتنازله عن مكانته لمراسله باستمرار؟!!. الحقّ أنَّ المقرّي يريد باستعماله لنون العظمة أو لنون الجمع المتكلّم، أن يحيل الخطاب إلى جماعة العلماء أي إلى سلطة قويَّة ما (معنويَّة أو ماديَّة)، احتفاءً بمراسله وإيحاءً له بصحبة كل أحباب وأصحاب المقرّي (المرسِل) فاحتواء المرسَل إليه يشعره سريعا بالانتماء إلى الجماعة المقصودة، فقد تضافرت الكفاءة اللّغوية[2] مع الكفاءة التداولية عندما صنعتا هذه المهارة التَّضامنية، عبر آليَّات كثيرة بعضها بعيد عن اللَّفظ ودلالته مختصّ بالسَّياق أو...

* أحيى: هكذا جاءت.

** أهمى: هكذا جاءت.

1- الرحلة ، ص 120-121.

2- سبق شرحها أعلاه ، تتمثل في القدرات اللغوية التعبيرية .

كما أشار المقرّي إلى مراسله بالألقاب:

العلامة + الشيخ+ الاسم الأوّل+... وهو ترتيب للألقاب يدلّ على دقّة التَّعامل الرَّسمي مع الشَّخصية فيحفظ مسافة صغيرة من الاحترام والتَّقدير، الباعث عليها هو الحياء أو العرف أو هما معا.

ممَّا يستدعي القول أنَّ مهارة التَّضامن لا تعني تمييع آداب التَّعامل وإهمالها فقد سبق القول بأنَّ مهارة التَّضامن دقيقة الآليَّات تهدف إلى تزكية السّلوك الحسن ولا تضحي به إطلاقا.

ب- استراتيجيَّة التَّوجيه :

إنَّ استراتيجيَّة التَّوجيه، من أقوى المهارات حضورا في متن الرّحلة، فالمقرّي كان عالمًا، يعلّم ويوجّه وكذلك كان رفقاؤه أعلاما أخيارا زهَّادا، فسياق الوجود، يستدعي الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر. لقد كانت خلفيَّة هؤلاء الفكريَّة ثقافة إسلاميَّة غزيرة، فهذا الفيلسوف المسلم "مسكويَّة"* يذمّ "**اللَّذين يدَّعون الزّهد ويعتزلون النَّاس ويفضِّلُونَ سُكْنَى الجبال والمغارات لأنهم منسلخون عن جميع الفضائل الأخلاقيَّة**"[1].

وإذ كان اكتساب الفضائل للارتقاء بالرّوح، يتطلَّب اتباع أساليب معيَّنة، فقد ذكر الفيلسوف "مسكويَّة" على رأسها: "**التَّزويد بالعلم، لأنَّ الطَّبع لا يكفي لصقل الإنسان فالعلم يُقوِّم نزعاته البهيميَّة والتَّحكم في مشاعره**"[2] فلم يكن هذا دأب المقرّي لوحده لكنَّه مسار كل علماء الإسلام العاملين.. لهذا حضر التَّوجيه أمرًا ونهيا وتحذيرا وإيعازا ورصفا للعواقب بل وبكلّ الآليات التَّعليمية الإرشاديَّة الهادية.. جاء في الرّحلة على لسان دواة:

* مسكوية: (أحمد بن محمد بن يعقوب، لقب "مسكوية" نسبة إلى لمسك ولد سنة 937م (1030م) من علماء القرن الرابع الهجري وهو صائع نظرية الفضيلة والسعادة، اهتم كثيرا بمواضيع النفس والأخلاق وكيفية السيطرة على الانفعالات. ينظر: التراث النفسي عند العلماء لعرب، ص283، 286.

1- د. محمد شحاتة، ربيع التراث النفسي عند لعرب، ص304

2- د.محمد شحاتة، نفسه، ص304.

1- حلَّفتُ منْ يكتبُ بي بالواحدِ الفردِ الصَّمد

2- ألاَّ يمدَّ مــدَّهُ فـــي قطعِ رزقٍ لأحـــد[1]

ما الّذي يستفيده المرسل إليه من هذا المعنى؟ ولماذا شخَّص الباثّ "الدَّواة"؟

هل الأمر كلّه طرفة؟! أم أنَّ استراتيجيَّة التَّوجيه كامنة في البيتين، تفوّض نفسها بآلياتها؟ إذا ما هي آليَّاتها؟.

إنَّ أوَّل الآليات، تطلَّب وجود معرفة مسبقة بمفهوم القسم بالواحد الأحد، ومدى أهمّيته في التَّداول بل إنَّ أحدا، لا يجرؤ على اعتراض القسم وتكذيب من أقسم صادقا.

فقد أرسى القسم اعتقادا لدى المتلقّي هو عظمة الأمر وهوله... فالمعرفة المسبقة بالقسم بالواحد الأحد، مُلزمةٌ لصاحبه مثيرة للأسماع، مُنبّهة للعقول ملفتة للأنظار.. وفي هذا تتخَّلص آلية الإثارة والتَّشويق التي يبحث عنها كل معلّم أو موجّه لحثّ تلامذته واستمالتهم.

أما بسط القضيَّة، فقد جاء مختصرا، كاشفا عن سبب القسم العظيم الملفت للاهتمام.

وتفاجأ بأنَّ الدواة تكلَّمت –بعد حدث ما- بأن لا تسمح لأيّ شخص باستعمالها في أمر باطل يتعلَّق بقطع أرزاق النَّاس.

1- الرحلة، ص173.

إن قسم "الدَّواة" دليل على تصعيدي دراميّ سابق لحالة من الظّلم والافتراء في استمالتها من طرف حكَّام ظلمة قطعوا على النَّاس أرزاقهم بتنحيتهم من مناصبهم أو تجريدهم من ممتلكاتهم أو حرمانهم من حقوقهم... ف" قطع الأرزاق" كناية عن كلّ هذا.

لكنَّ المدهش هو كيف ساق المربِّي/ الشَّاعر أو الباثّ، فكرة تربويَّة وقيمة أخلاقيَّة رائعة بدون توظيف أمر أو تحذير و إنذار؟! كيف أثَّر على المتلقّي؟!.

إنَّ تشخيص الدَّواة "آليَّة كاريكاتورية، وأما قسمها وشكواها فحقائق عقائديَّة واجتماعيَّة لا ينكرها عاقل، أما سياق التخاطب فهو المساجلات الطريفة، لكن العبرة منها: مهارة توجيهيَّة لسلوك الإنسان مهما بلغ سنه، ومتى ما اجترأ على مخالفة "الدَّواة".

ثمَّ أليس من أقوى آليات التَّوجيه، شكوى الجماد وتذمّره من طغيان الكائن البشري؟ هل يثير هذا الإشكال مروءة الإنسان؟ فيستحي، ألا يلمح الشَّاعر إلى خطورة "قطع الأرزاق"، فيوجّه النَّاس ويعلّمهم بدون إثارة حفائظهم؟ بلى، إنَّها مهارة التَّوجيه في أجمل آليَّاتها، وأبسط تمريراتها!.

مرَّة أخرى تتمظهر مهارة التَّوجيه، وفق آليات جديدة، حيث يقول[1] العلاَّمة "تقي الدّين أبي محمد بن عسكر":

1- الرحلة، ص170.

1- ومُمْتَحِنْ يومًا ليَهْضِمَنِي هَضْمَا
عن الواو كم قسما فقلتُ له نظما

2- فَقَسّمْتها عشرون ضربا تتابعت
فدُونكهَا إنّي حَبَوْتُكُما رسمـــــــا

3- فأصلٌ وإضمارٌ وجمعٌ وزائدٌ
وعطفٌ و واوُ الرَّفعِ في السّتةِ الأسما

4- وربَّ ومع قد نابت الواو عنهما
و واو ك في الإيمان فاستمع العلمـــا

5- وَوَاوُك للإطلاق والواو ألحقت
وواو بمعنى إذ قدونك بالحرمـــــا

6- وواو أتت بعد الضمير الغائب
وواوك في الجمع الذي يورث النعما

7- وواو الهجا والحال واسم لماله
سنامان من دون الجمال له به يسمى

8- وواوك في تكسير در وواو إذ
وواو ابتداء ثم عشري بها لمـــــــا

فالشاعر يفتتح قصيدته بوضعنا في سياق الوجود في البيت الأول، إذ يشير إلى سبب نظمه هذا، وهو سؤال أحدهم للشَّاعر بغية امتحانه في النَّحو ومدى معرفته بأنواع الواو: وهو بهذا يضعنا في سياق المقام إذ يظهر

الشَّاعر العلامة ممتحنا ويظهر مخاطبه ممتحنا له، هكذا يظهر التَّوجيه غير المباشر للمخاطب/ القارئ فهو ليس المقصود المباشر بالتَّعليم والتَّوجيه في موضوع الواو، وما يزيد هذا التَّحليل تأكيد هو أنَّ الشَّاعر لم يذكر مخاطبه بالاسم و لم يشر إلى مكانه وزمانه، بل أهمل هذه التَّفاصيل، وأكَّد على موضوع الامتحان/جواب وهكذا ينتقل الشَّاعر في البيت الثَّاني إلى الإجمال فيقول أن الواو عشرون ضربًا ليفصّل بعد ذلك في أقسامها المختلفة، لقد ظهر التَّناسق بين الأبيات عن طريق الإجمال/ تفصيل، كما تبلور ارتباط الأبيات ببعضها عن طريق الرَّابط "و" و"ف".

إن آليَّة عرض التَّفاصيل وقبلها طرح موضوع علمي، بقصد التَّعليم جليّ هنا، وإلا لماذا عرض الدَّرس النَّحوي و لم يعرض لتفاصيل الواقعة بما بما فيها من أحاسيس التَّفوق والتَّحدي...وتتعاضد مهارة التَّوجيه بمهارة التَّلميح، حيث يحتاج المبتدئ إلى من يشرح له الفرق بين الواو والزائدة و الواو المضمرة و واو الإطلاق*.

لكنَّ الشّعر التَّعليمي، لم يكن شعرا بكلّ مقاييس الشّعر و لم يكن درسا بكل مقاييس الدَّرس، فالهدف من هذا النَّظم هو تحفيظ المتعلّمين قواعد وضوابط يعمل علماء اللّغة والدّين على ترسيخها في الأذهان، فهل التَّذكير توجيه؟

* علما أن الضرورة الشعرية أملت على الشاعر بعض التكرار كما فعل في الشطر الثاني من البيت الخامس مع الشطر الأول من البيت الثامن.

إنَّ الآية الكريمة: "وذكّر، فإنَّ الذّكرى تنفع المؤمنين"[1]، تحمل هذه الدَّلالة، إن لم يقل أنَّ التَّذكير أي تنبيه الغافل توجيهٌ أصلاً.

1- سورة الذاريات ، الآية

ج- استراتيجيَّة التَّلميح :

جاء في متن الرّحلة:

"... **فقمت أقدم رجلا و أؤخّر أخرى**"[1].

معنى العبارة حرفي واضح جلي، فهو تقديم رجل و تأخير أخرى.. لكنَّ الّذي يلمّح إليه الكاتب هو "التَّردّد" و الخوف من الإقدام على أمر ما فالعبارة خرجت من معناها المعجمي إلى دلالة أخرى تعارف عليها النَّاس مع مرور الزَّمن، بل أصبحت مثلاً سائرًا، لكنَّه مثل يشير إلى شيءٍ آخر غير معنى التَّقديم والتَّأخير، فكما تتطوَّر اللّغة، قد تتحجَّر[2]، فتقف عند دلالة ما ، لا ترقى إلى غيرها، وإن كان التَّحجر يصيب العبارات، أكثر ممَّا يصيب المفردات.

وقد عرفت عبارة مثل "يا وحيد الزَّمان"[3] مدلولا آخر غير الّذي تعنيه الحروف؛ الوحيد بل أصبح، المعنى؛ المتفرّد بعلم أو خصلة ما... والسّياق النَّصي هو الّذي يعطي الدَّلالة ثراءً أكبر فقد يلمّح بالعبارة إلى التَّفرد بالمكانة العالية كما قد توظف في سياق التَّهكم.

أما الشَّاعر فقد ذكر العبارة مادحا بها قاضي القضاة عبد الكريم بن سنان إذ قال:

"**يا وحيدَ الزمانِ عش في أمانٍ ونجاةٍ من كل أمر ذميمِ**"

1- الرحلة، ص203.

2- ينظر: أحمد المتوكل، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية المكونات أو التمثيل الصرفي-التركيبي، ص27.

3- الرحلة، ص177.

إذا كانت هذه الاصطلاحات التَّعبيرية، تمرَّر دون خلاف أو إشكال بسبب الكفاءة التَّداولية لطرفي الخطاب ومخزونهما اللّغوي، فإنَّ مفردات أخرى تلميحيَّة قادرة على تسويق الخطاب وتوضيح القصد ، علما أنَّها تلمّح ولا توضَّح و تفصّل : قال المقرّي في إجازة علميَّة، للشيخ عبد الرَّحمن العمادي[1]:

1- **لو سردتُ كل مروياتِي**

هنَا لطالَ القولُ في الأبياتِ

2- **وكلُّ طولٍ غالبًا مملولُ**

وقد منْ يعنَي به مغلـــــول

3- **فلنقتصر إذنْ على القليلِ**

تبركًا بالمطلب الجليـــــــل

فلفظة "كل" تلميح إلى كثرة مروياته لكن دون تحديد للكم وبالتالي هو يقصد علو مكانته، ثم إن المقرّي يقنعنا بعدم جدوى سرد كل مروياته عن طريق الاستدلال المنطقي وهو ما جاء في البيت (2) من حدوث السَّأم والملل لهذا يقتصر على القليل المفيد، ملمّحا في البيت الثالث إلى مثل سائر في المغرب العربي، وهو: "البركة في القليل" ليقنعنا أكثر فأكثر بعمليَّة موقفة ورجحان اختياره.

1- الرحلة، ص166.

أم قول ابن أبي حجلة:

1- **قطع الأحبة عادتي من وصلهم**

فكأن قلبي بالتَّواصل ما غذي

2- **فإذا سمعت بعائد من نحوهم**

منعوه من صلة لهم، فأنا الذي

في الشَّطر الثَّاني من البيت الثَّاني، تلميح جميل يدلّ على كفاءة تداوليَّة وعلى شجاعة أدبيَّة، فالشاعر لا يذكر سبب منع أحبابه من وصاله فهو يتمّ الكلام "فأنا الّذي..." وللمتلقي أن يتصوَّر السَّبب "أنا الّذي أستحقّ هذا على إخلاصي" أو "أنا الّذي بدأت بقطع الوصال" أو .. إنَّ آلية الإبهام والحذف والأصحّ آلية المسكوت عنه دليل أقوى من التَّعبير، ألا ترى قولنا : "لا داعي، لأن أخبرك بالأمر، السّكوت أفضل..." ألا ترى أنها عبارة قويَّة مشوّقة مثيرة للفضول منبّهة للخيال الجامح..؟!

كذلك هي عبارة "فأنا الّذي..." أقوى من أيّ تعبير مفترض، لأنَّ المسكوت عنه، مهول، مثير للقلق وللفرضيَّات...

مهما تعددت آليات استراتجيات التلميح، فإن السياق يعد أقواها ذلك أن سياق المقام يتحدد هنا بمخاطبة المقري لأحد وزراء مصر ولمن على لسان أحد أصحابه، مما يرشح النص من البداية للتعمية أو المداراة خلف شخص آخر.

يقـــول[1]:

يا مصطفى الوزراء س[1]اعدك القـــدر

فالســـعد بشر بالتمـــكن والظـــفر

ويواصل الشاعر مدحه لمصطفى وزير مصر موظفا آلية التأدب لأنه في صدد تذكيره بمقامه الذي وصل إليه.

وفي البيت السادس والسابع سر هذا التأدب وهذا التذكير حيث يقول

شهدت بذلك شواهد الأفـــلاك

إذ لله فيـــها حكمة لمـــن إعتـــبر

وقضى طبع الحروف وبسطها مـــع

وفقها الملـــوم عنـــد ذوي الأثـــر

وأبانا سر الحرف صورة جـــدول

مـــا نـــاله أحد سواك مـــن البشـــر

ومن الإسم الأعظم عمرت أبيـــاته

بخمس في قلبـــه إسمك قتد ظهـــر

- في هذه الأبيات تلميح إلى كتابة طلسم بإسم الوزير ذات يوم.

وتلميح إلى سر الطلسم في إعتلاء الوزير لمكانة عالية مدحه بها في الأبيات الأولى. وفي هذا معرفة سابقة بسر المخاطب والشاعر بعد ذلك يمارس سلطة على مخاطبه بهذا التلميح، بل هو يضيف قائلا:

[1] - الرحلة ص216-217 .

فاحمله محتفظا وصن مضمونـــه

تنـــل المـــواهب في الإقامة والسفـــر

ثم يواصـــل:

فليهنأ السر المصون ذخيـــرة

وأسلك بفعـــل العدل سنة من غبـــر

وحط الرعايا بالنصيحة وامتثل

حكم الرسول بمـــا نهـــى وبمـــا أمـــر

تترسف أفعال الأمر وصيغه لتصنع سلطة المقري على مخاطبه وفي ذلك إيعاز خفي وتحذير لطيف.

فإذا كان الهدف الكلي هو مدح الوزير وكان الهف الجزئي هو التعريض به فالقصد من النص هو التلميح والتحذير من مغبة تناسي صاحب الفضل، فقد سكت النص عن أسباب هذا التلميح لكن سياق المقام يكشف عن معرفة المقري بكثير من علوم المغاربة في التنجيم والطلاسم والمخنسات مما يوضح أنه صاحب الفضل على الوزير من ناحية ومن ناحية أخرى وظف إستيراتجية التلميح بصيانة ماء وجهه، فالمقري عاش حتما ظروفا صعبة في غربته وإحتاج إلى من يساعده ماديا أو معنويا ، ولأن أكثر الناس "يقلب ظهر المجن" فقد حدث شيئ كهذا أو قريبا منه جعل الشاعر لمح للمرسل على لسان غيره بأفضاله عليه.

وجاء في متن الرحلة قوله:

" وقلت عن طريق حروف المغاربة مؤرخا"

أشرقت أرجاء فـــاس ** بعلا مـــولى وسيـــد

غالـــب بالله فـــرد ** بالمعـــــالي متقيـــد

مذحوى ملكا حماه ** طالع للسعد جيـــد

فلهـــــذا أرخـــوه ** مدد الغـــالب أيـــد

لقد تواضع المغاربة على تشفير حروف الهجاء بطريقة ابجد هوز، فصار كل حرف يرمز لعدد معين .كما تم ترتيب الحروف ترتيبا مغايرا لما يعرف في المعاجن بحروف الهجاء والتشفير كالتالي:

أ=1 ، ب=2، ج=3، .....

ي=10، ك=20، ل=30 ، م=40، ن=50

وهكذا فإن هذه الحروف دوال على مذلولات هي الأرقام والغالب أن هذا التشفير سعى إليه اهل الطلاسم والأختام والتنجيم وعليه فإن فك سنن الشطر الأول تعطينا تاريخ وفاة" الشيخ مالك بن أنس رحمه الله" أي 1027 ه.

د- استراتيجيَّة الإقناع:

لماذا صارت مهارة الإقناع، أكثر تداولا، وتوظيفا؟!

هل المتلقي-اليوم- أكثر حيطة عن ذي قبل؟!

أم أنَّ مهارة الإقناع أقوى من غيرها، على نسيج حبال التَّواصل؟!

أم أنَّ آلية الحجاج، في مهارة الإقناع، جعلت المتلقّي أطوع وأسرع في التسليم بكلام الباثّ؟!

ولكن ما هو الإقناع؟ وما هي مراتبه؟!

وما مدى أثرها في متن الرحلة؟ !

لعل أوّل من بهر النَّاس بحقّ، في وضع الضَّوابط وشرح الشّروط المؤسّسة لمهارة الإقناع في الخطاب، هو الجاحظ؛ فقد انتبه إلى ما يخصّ الخطيب من مميّزات وصفات وملكات، تمنحه القبول، وتعطي خطابه وزنا، من ذلك حديثه عن هيئة الخطيب الحسنة وبلاغته وقوة استشهاده... بل إنَّ الجاحظ قد أدرك دور العلامات السّيميائية في قوة الإقناع مثل الخط والإشارة والحال والعقد والنصبة[1].. فكان بذلك مؤسّسا لضوابط مهارة الإقناع بلا منازع، بل أحد المتَّكلمين في علم العلامات (السّيميائيات) أيضا...

1- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص83.

والحقّ، أنَّ الإقناع بآلياته ظهر عند العرب، في النَّص القرآني الكريم، ثمَّ في النّتاج الفكري الإسلامي، فقد حوى مناظرات[1] ونقاشات وحوارات[2]، ذات كفاءات تداولية واستراتيجيَّات خطابيَّة ومهارات وآليات..

فقد نهج العرب الفاتحون للأمصار نهج القرآن الكريم في مخاطبه[3] الشّعوب قصد استمالتهم وإقناعهم وتعليمهم... فكان الإقناع أحد مهاراتهم في بناء استراتيجيَّة الخطاب، كما تبلورت في كثير من السّياقات وكثير من العلوم*، التي عرفها العرب**، كعلم الفقه وأصوله وعلوم اللّغة وعلم الكلام، خاصة في العصر العبَّاسي الذي زخر بموجة المذاهب الدّينية واللّغوية والتَّوجهات الفلسفية بل زخر بالنّحل والملل المختلفة...

وجدير بالملاحظة، ذكر ما للعرب من فضل في إضفاء لباس الجدل على المناظرة بل جعلهم المنطق جزءا منها فالمناظرة؛ هي طلب كل من المتكلّم والمخاطب تمييز الصَّواب من الخطأ وبالتَّالي يقصدان إلى طلب الحقّ

1- لقد كان للمناظرة وللأسلوب المناظري، في الإنتاج الفكري الإسلامي دورا عظيما، إذ عمم على كل مجالات المعرفة مما أثرى التراث، ثراء فلسفيا متميزا. ينظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، صص 68-69.

2- سورة إبراهيم .

3- ينظر: إحسان النص: الخطابة العربية في عصرها الذهبي ط: دار المعارف، مصر 1963.

وينظر، أنيس المقدسي: تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي، ط: دار العلم للملايين، بيروت، 1968.

وينظر: كمال اليازجي: الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم.

* ظهر في الفقه "باب الخلاف" وفي النحو "باب القياس" وفي الأدب "النقائض" وكذا المناظرات بين أهل العلم والدين، في شتى التخصصات مثل: مناظرة أبي سعيد السير في النحوي ومتى بن يونس الفيلسوف.. وغيرها كثير.

**أحد عرف العرب في العصر الجاهلي الخطبة التي بنيت أصلا على الإفحام والإقناع والبينة، والأمثلة على ذلك أكثر من كثيرة...

—وقد كانت في عرف أرسطو تفيد الظنَّ فقط- طلب الحقّ بأصول وأخلاقيَّات[1] ومنهج ذي بعد إسلامي، محكم... هذا عندما لا يكون هدف المناظرة الإيقاع والإدانة عوضا عن الإقناع والتَّواصل المعرفيّ... أي عندما يكون بعد المناظرة سياسيًا، وقد وقع[2] ذلك كثيرا وفي فترات مختلفة من تاريخ الحضارة الإسلامية.

- استراتيجيَّة الإقناع في الرّحلة:

كيف تتجلَّى مهارة الإقناع في الرّحلة؟!، وماهي آلياتها ؟ و هل للشاعر قصد من ورائها؟

روى* المقرّي قصيدة طويلة وجميلة، في مدح النبيّ صلى الله عليه وسلم، بعث بها إليه "أبو الحسن على الشامّي الفاسي، وهي قصيدة: زهر الكمامة في مديح المُظَلَّل بالغمامة"[3].

1- سَامَ النَّوَى قَتْلِي ورَامَـــــه من غبث عن نجد ورامه

2- والقلبُ منّي قد غـــــــدا أمَدَ المدى بيدي غرامه

3- وزفير نار البعد في الأحشاءِ قـــد أبدى ضرامـــــه

4- شوقا لتربـــة يثـــــــربٍ مغنى الرسالةِ والكرامـــه

1- ينظر، طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، صص68-85.

2- ينظر محمد العمري:

* وقد أشار المقري إلى كون علي الشامي قد "رأى قصيدتي وأغار على كثير منها سامحه الله" مما يعني توظيفه لكثير من مكاني وأفكار وربما عبارات المقري...

3- الرحلة، ص212.

5- يا لائمي في الحـــبّ مَهْ منع النوى عني[1] الكرى مَهْ

تبدو افتتاحية القصيدة، عادية، تقليدية، تتحدث عن البعد والشَّوق... لكنه ليس شوقا للحبيبة ولا بكاء على أطلالها.. إنه الشوق إلى النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، فقد جاءت كلمة "يثرب" في البيت الرابع دليلاً وحجَّة كما جاءت عبارة "مغنى الرّسالة والكرامة" كناية عن موصوف هو المدينة المنوّرة.

وأمَّا في البيت الخامس، فقد احتجَّ بلفظة "مَهْ" وهي اسم فعل أمر بمعنى انكَفِفْ[2] أو أصمت بحسب السّياق.

فالباثّ يأمر لائمه بالصَّمت وعدم مواصلة اللَّوم، في حبّه النَّبي عليه الصَّلاة وعلى آله وسلَّم، لأمر مخصوص لا يريد الإفصاح عنه... لذلك يتبادر إلى فهم المتلقّي أمران؛ أحدهما: أنَّ الأمر جليل، ولا يجب الاعتراض عليه باللَّوم.

والأمر الثَّاني؛ أنَّه من الوقاحة والرَّطانة التَّطاول على الملوم بمواصلة العتاب...

ففي هذا حجاج، وأي حجاج!! فكثيرا ما يقطع متحدّث حديث صاحبه عند نقطة معينة ذات دلالة...قائلا: "أسكت... أسكت.. لا تواصل !!.. لأنَّها –حتما- تثير مشاعره بالخوف الشَّديد من شيء أو بالحزن الدَّفين أو بالفرح العارم... و"مَهْ" آلية مناسبة لنتاج خطاب

1- جاء في الرحلة عن والصحيح عني

2- المنجد في اللغة والإعلام، مادة: مَه.

تلميحي لا يفصح عن أمر واضح. لكنه يقصد التَّعبير عن شيء خفيّ، "مَهْ" كناية عن المنع والإلزام بالصَّمت. لكن هذه الآلية التلميحيَّة، قصد الباثّ من ورائها الإقناع. إنها المناورة إذا ولكن أليست المناورة إحدى أهمّ قواعد الاستراتيجيَّة؟

ويواصل الشَّاعر قصيدة علي الشَّامي قائلا[1]:

8- أتظنُّ مثلي سامعًـــــــا تعذال مثله أو كلامــه؟

9- لا والذي أمت قريــشٌ ركنه نرجو إستلامــــد

10-لا عاش في العشاق مَنْ يصغى لمن في الحب لامه

11- أتلومني في حبّ مَنْ في مثله تحلو الملامــــه؟

12- في حب أحمد من جَلاَ للكون مبعثه ضلامــه؟

13- المفرد العلم الذي أضْحَى له الرفع علامــــــه؟

14- التابع المقصود بالحكم بلا وسطى أمامــــه؟

15- المصطفى والكون ما فتح الوجود له كمامــــه

الملاحظ، هو أن البيت 9-10- عبارة عن أسلوبين خبريين وهما متصدّران بلا القافية حيث نفى الشاعر —وهو يقسم على ذلك- استماعه لمن يلومه في حبّ النَّبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، وهذا النَّفي المتوالي ترتيب ذكي وقوي للآءات ترفض رفضًا الانصياع للآئم.. فالأبيات 9-10 بنية حجاجيَّة القصد منها تلميحي.

1- الرحلة، ص210.

فالنَّفي –هنا– آلية حجاجيَّة في بناء مهارة الإقناع، وقد زاد هذه الآليَّة نجاحا وإحكاما، القسم؛ في قوله "والذي أمَّت قريش ركنه.." وهو قسم بالله تعالى، يكشف عن إصرار المتكلم/ الشاعر في ما ذهب إليه من موقف...

أما توظيف الاستفهام، فقد جاء بشكل متتابع ومتلاحم في الأبيات 8-11-12-13-14-15... وذلك لصنع نسيج قوي متين، وتعجب مدهش لا يُرَدّ.. بل إن الباثَّ قد أفحم المتلقي، و لم يترك له فسحة للاعتراض، لقد أمطره بوابل من الاستفهامات التَّعجبية التَّقريرية بهدف تقوية حجاجه.

أمَّا طبيعة هذه الحجج؛ فهي مسلَّمات في رصيد الثَّقافة الدّينية، وحقائق تاريخيَّة يجمع عليها المسلمون كافَّة، وبهذا يكون الباثّ قد وظَّف عناصر مشتركة من الفكر والثَّقافة الإسلاميين ولولا هذه البراعة لصعب على المتلقي فهم الرّسالة، ولصعب على الباثّ تمريرها بل إقناع الآخرين بها...

لقد أحكمت مهارة الإقناع عن طريق تظافر مجموع آليات، في هذا الخطاب كان أولاها الإقناع عن طريق التَّلميح وعدم الإفصاح، ثم عن طريق الحجاج بالنَّفي ثم الحجاج بالاستفهام.. وكلها آليات تخدم المهارة أعلاه وتحكم بناءها.

خـــــاتمة

خـــــاتمـــــة

❖ لعلَّ وجه الإغراء في هذا البحث المتواضع، هو أنه مقاربة تداوليَّه على الأدب الرّحلي الجزائري، مع أن التَّطبيق على متن الرّحلة أمر لا يخلو من مغامرة، فالاستئناس بدراسة تطبيقيَّة تداولية مسألة نادرة للغاية، ناهيك عن كون الدّراسات لم تلج-بعد- الأدب الجزائري في الحقل التَّداولي وإن فعلت انصبَّ اهتمامها على عنصر أو آلية واحدة من عناصر التَّداول فقط.

وخلاصة ما سبق، أن مجموعة نتائج برزت إلى السطح من بينها:

1/أن البحث، أثار الاهتمام بأحد متون الأدب الجزائري وبأحد أعلامه أحمد المقرّي.

2/أن محاولة التَّطبيق، ألقت الضوء على آليات وتقنيات استراتيجيَّة الخطاب الّتي تفيد أهل التَّخصص من المتعلّمين وكذا أساتذة التَّعليم الثَّانوي.

3/أنَّ المقاربة أظهرت، تعدّد المقاصد والأهداف والسّياقات والآليَّات بتعدّد واختلاف استراتيجيَّات الخطاب...وأنَّها قابلة للتَّكاثر، البحث وحده قادر على حصرها إن تواصل على متون أخرى.

4/عرف البحث القصد ودوره الأساسي في بناء الاستراتيجيَّة، كما وضَّح الفرق بين الهدف والقصد وبين السّياق والمقام وبين النَّص والخطاب مركزًا على مفهوم الخطاب تداوليًّا.

5/تمت الإشارة إلى دور المستوى التَّنظيمي بناء الاستراتيجيَّة، لأنَّه مرتبط بالكفاءة اللّغوية ولكنَّه يعمل بآلياته المختلفة على تدعيم القصد أو تحويره وبالتالي إرساء استراتيجيَّة ما.

6/أنَّ الرّحلة محققة، لكنَّ إعادة تحقيقها، أمر مفيد ليتواصل البحث عليها، فهي بحاجة إلى توضيح كثير من الإحالات والكلمات مع إعادة ترتيب وتهميش وتعليق...علما أن هذا لا يحطّ من قيمة الرّحلة ولا من محقّقها محمد بن معمّر، إطلاقا.

7/لقد أثَّرت النَّظرية الغشتالتيَّة، الوعي الإنساني حيث صارت دراسة الظواهر شاملة مما ترتب عنه بلاغة الخطاب عوضا عن بلاغة الجملة أي دراسة الوظائف الكلية للخطاب ومن تم ملاحظة تآلف الأنساق وتوالدها لتشكيل نماذج خطابته متعددة السياقات ذات وظائف...

كل هذا يدلّ على تآزر المناهج، مستقبلا وتعالقها كما تعالقت النّصوص وتقاطعت، كيف لا يحدث هذا وعمليَّة التَّثاقف والتَّواصل بين الثَّقافات والحضارات والمناهج مستمرَّة على قدم وساق.

ملحـــق

رسالة المؤلف الي المقدم أحمد النقسيس

/72/الحمد لله، ومما كتبته بالمغرب الي المجاهد المقدم أحمد النقسيس[1] بما يظهر لي من الغرض ،ماصورته:

الحمد لله وحده،صلي الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم،المقام الذي أينعت غضون جهاده وأورقت،و أضاءت شموس رباطه وأشرقت ،واضطرمت نيران باسه على أعداء الدين فأحرقت، النبيه الأنجد، الوجيهالأمجد، المثاغر المرابط الرئيس، انسان عين الزمان المقدم أحمد بن عيسي النقسيس،وصل الله لجلالكم من السعود ما لا يخالطه تدليس، وأدام للمسلمين وجودكم وأعانكم على اعلان كلمة الله في الارتحال والتعريس ، سلام عليكم واضح القسمات،مشفوع بالرحمة و البركات، متأرج النسمات، أوجبه اليكم بعد السؤال عن جملة أحوالكم السنية،و السلام على الأنجاد الأمجاد أو لادكم أقر الله بهم عيون الاسلام وبلغكم فيهم غاية الأمنية.

اعلامكم بأن الوزير الحاجب الأسمى القائد بن عمر ، حصل بينه وبين سيده مولانا السلطان نصره الله، بعض مايقع كثيرا مثله بين الخادم و المخدوم، واقتضى النظر السلطاني تأخيره عن ثغركم الذي نظيره في الجهاد معدوم ، ولم يزل أيده الله يرتاد من أعيان خدامه من يسد ذالكم الثغر كما يجب ، ويقوم بفروض الجهاد الذي أسست قواعده وزكت مساعيه ومصاعده، القائد النبيه وارث الرياسة عن جده و أبيه، المبلغ ان شاء الله

كل أمل مرقوب، القائد يعقوب بن محمد بن يعقوب ، وأخيه ذي الأخلاق الحميدة ،و الخلال الجميلة العديدة،و الخصال التي طرقها سديدة، والشجاعة التي شكيمتها في العدو قوية

لذلك الأجر المنثال،وقلت هذه نهلة يعذب وردها،ونحلة لايحسن ردها،فلا بد عليها من الاقدام،وان كان عرضة لمزلة الاقدام،فنظمت و البلاغة درجات،و البضاعة فيها مزجاة [1] ، ولاغرو أن من آوي بعد الخطر الى سفينة بحر الاغضاء وصل لساحل النجاة،وأتيت مع هذه المعجزة الكريمة بمعجزات عدة،وكرامات نجدها بحول الله يوم القيامة ذخيرة وعدة،وسميتها بزهر الكمامة في مديح المظلل بالغمامة وهي :

سام النوي قتلي ورامـــه مـــــذ غبت عن نجد ورامه

و القلب مـــني قد غـــدا أمد المدى بيـــدي غرامـــــه

وزفير نار البعد في الأحشاء قـــد أبـــــدى صرامـــــه

شوقا لتـــربة يـــــــثرب مغنى الرسالة و الكـــــرامه

يا لائمي في الحب مـــــه منع النوى عن الكرى مـــه

ألف الغـــرام تعانقـــــني حتى بدا ألـــــفا ولامـــــه

ونحرف الفراق حشاشـــتي حتى غـــدت درعـــا ولامه

أتظن مثلـــــي سامعـــا تعـــذال مثـــــله أو كلامـــه

لا و الذي أمت قـــريش ركنه ترجـــو استـــــــلامـــه

لا عاش في العشـــاق من يصغـــــي لمن في الحب لامـــه

أتلو مني في حـــــب مـــن في مثله تحلـــــو المـــــلامـــه

في حب أحمد من جـــــلا للكـــون مبعـــــثه ظـــلامـــــه

المفرد العلـــم الذي أضحى له الرفـــــــع عـــــلامـــــه

التابع المقصود بالحـــــكم بلا وســـــطى أمـــــــامـــــه

المصطفي و الكـــون مافتح الـــــوجود لـــــه كمـــــامـــه

من قد سما بـــه للسمـــــا جبريل اذا أمســـــــى أمـــامـــه

و ملائك الرحمن والأرســـل تـــلتمـــــــس اتـــــمامـــــه

من آيه كالســـــحـــب لا يـــــرجـــــو بهـــــا عد تمامـــه

نطق الحصـــي في كـــــفه وأنت تظلـــــــه الغمـــــــامه

و العنكبوت وقته من كيـــد العـــــدى وكـــــذا الحمـــــامه

و الغيث بعد الجدب كـــــم أهـــدي بدعـــــوته غمـــــــامه

حتى ارتوى مـــــــن حلمه الكفـــــار مـــــن أرض اليمامـــه

وأتى قريشـــــا قـــــــوهم اذا كـــــــــان صـــــدهم ثمامه

وأتـــى البـــعير لجده يعنو وقـــد ألـــقى زمـــــامه

و الظـــــبي لاذ بجنبـــه وأتـــى وقـــد وفي ذمـــامـــه

والضب أفصـــــح قائـــلا يا زين مـــن وافى القيـــــامة

و الضـــرع در حـــــليبه و الجذع قـــد أبقـــي هيـــامه

و الطفل خاطب مـــــن أنا فأجاب من نـــرجو احتـــــرامه

وكـــذا الطفيل بدت له من نوره الأســـــنى كرامـــــه

و الماء فـــار بـــــكفه و الجيـــــش أشبعـــه طعامه

وقضت بيادر جـــــابر دينا كســـــاه الضغط عمـــامـــه

و الشاة قـــد نطقت بمـــن قد كـــــاد سمـــا وســـامه

و الشمـــــس ردت نورها و البـــــدر قد أبدى انقسامه

و الميت أحـــــي شـــلوه وكـــذا المريض شفـــى سقامه

المؤلف يخاطب أحد وزراء مصر على لسان بعض أصحابه

وقلت على لسان بعض الأصحاب يخاطب وزيرا[1]:

يا مصطفى الوزراء ساعدك القدر فالسعد بشر بالتمكن و الظفر

و النصر قد أقبل في طلائع عزة لعلاك يمنحك الصفا بلا كدر

و الدهر مبتسم المحيا مخبر عن قدرك الأسمى بادراك الوطـــر

ولمجدك العالي مآثر أســـست أركانها في الملك تبهر من نظر

ولنور طالعك السعيد أشعة محقت من ظلال الحاسدين ومن كفر

شهدت بذلك شواهد الأفلاك اذ الله فيها حكمه لمن اعتـــبر

وقضي طبع الحروف وبسطها مع وفقها الملوم عند ذوي الأثـــار

وأبان سر الحرف صورة جدول ما ناله أحد سواك من البـــشر

من الاسم الأعظم عمرت أبياته بخمس في قلبه اسمك قد ظـــهر

في لوح مختار المعادن سطرت أعداده ملئ المسامع و البـــصر

وبظهر هذا اللوح أشرف جدول أوفاقه تزري بمكنون الـــــدرر

ويبدي بفضل الله من أسراره عجبا به قد صدق الخبر الخـــبر

فاحمله محتفظا وصن مضمونه تنل المواهب في الاقامة والسفر

من عزة وثبوت جاه واعتلاء ومهابة وبلوغ قصد معتـــبر

ونفوذ أمر في الأعادي جملة وقبول سلطان وأمن من حذر

والحصن من فتن أشيع حديثا لا سيما ما كان يحذر في صفر

لوكان غيرك ما سمحت له به أوليتني النعمي و مثلي من الشكر

فليهنك السر المصون ذخيرة واسلك بفعل العدل سنة من غبر

وحط الرعايا بالنصيحة وامتثل حكم الرسول بما نهى وبما أمـــر

فلقد أبنت بمصر بهجة ملكها وحميت حوزتها وكانت في غرر

وأقمت فيها أمر سلطان الورى مولي ملوك الأرض عثمان [1] الأبر

نصر الاله جنوده وأدامه في ظل الملك يحمى الخافقين من الغير

ولك البشارة بالمزية عنده وعلو شأن في الورود وفي البلاد قد انتشر

لازلت منصورا اللواء مؤيدا يا مصطفي الوزراء وساعدك القدر

رسالة من عبد العزيز القشتالي الى المؤلف

و كتب لي الوزير، الجليل الكبير ، الشهير الصيت بالمشارق و المغارب ، صاحبنا صاحب القلم الأعلى بالمغرب ، وواسطة عقد موالينا الأشراف أيدهم الله و نصرهم ، سيدي عبد العزيز القشتالي[1] شكر الله سعيه .بما نصه:

يانسمة عطستها أنف الصبـــــــا فتضمخت بعبيرها قنن الـــــربى

هبي على ساحات أحمد و اشرحي شوقا إلى لقياه [2] شرحا مطنبـــا

وصفي له بالمنحنى مـــن أضلعـــي قلبا على جمر الغضى متقـــلبـــا

بان الأحبة عنه حي قد تـــــوى منهم وآخر قد نـــــأى وتغيبـــا

فعساك تسعد يا زمان بقربهـــــم فأقـــــــول أهلا باللقاء و مرحبا

السيادة التي سواها الله من طينة الشرف و الحسب، و غرس دوحته الطيبة .بمعدن العلم الزاكي المحتد و النسب، سيادة العالم الذي تمشي تحت علم فتياه العلماء الأعلام، و تخضع لفصاحته و بلاغته حملة الأقلام و صيارفة النثر و النظام، كلما خط أو كتب، و إذا استطار بفكره الوقاد سواجع السجع، انثالت عليه من أوكارها ونسلت من كل حدب و حكت بانسجامها السيل و القطر في صبب، الفقيه العالم العلم، والمحصل الذي سجلت العلماء لتدرك في مجال الادراك شأوخ فلم ،سيدنا الفقيه الحافظ حامل لواء الفتيا، ومالك الملكة في المنقول و المعقول من غير شرط

و عذرا أيها الشيخ عن البيت الذي عطست بع انف الصبا، فقذفت به البديهة من الفم، و شرقت به صدر قناة القلم، كما شرقت صدر القناة من الدم، و أماما تحمل الرسول من الكلام ف صورة الملام ،لا بل مادام ،أترع به من سلاف المحبة كاس و جام،فلا وربك ما هي إلا نفحة نفحت،لا سموم لفحت ،هززنا بها جذع أدبكم كي يتساقط علينا جذيا، و يهمي و دقه على الربع المحيل من أفكارنا وسميا و وليا ، فجاد و أروى و أجاد فيما روى ، و أحيا من القرائح ميتا كان حديثا يروي ،وطرسا بين أنامل الأيام ينشر و يطوى، أحي الله قلوبنا بمعرفته و بنواسم رحمته ، وعرج بأرواحنا عند الممات إلى المحل الأخص بالمؤمن حضرته .

وأهدي السلام المزري بمسك الختام إلى الفقيهين الأمجدين ،الصدرين الأنجدين ،الفذين التوأمين ، الفاضلين المجيدين ،فارسي البارعة واليارعة و رئيسي الجماعة في هذه الصناعة ،رضيعي لبان الأدب ، و واسطتي عقده ، و مجيلي قدحه المعلى،و موربي زنده ،المتمتعين بشميم غرار نجده ، الكراعين بالبحر الفياض من هزله وجده ،الآتين بالجنس و الفصل من رسمه وحده ،الكاتب البارع أبي الحسن سيدي علي الوجدي[1]، وأقرر لديهما الود المستحكم المعاقد، الصافي المناهل، العذب الموارد،واني قائم بورد الثنا عليهما دائما لدى المقام العلى الامامي الناصري،دام سلطانه،وتمهدت أوطانه،(وستتجلى هم ان شاء الله عند الاطلال على البلاد،وحل عقال البين و العباد،نتائج تلك المقدمات،ونوافخ تلك النسمات،و السلام التام معاد عليكم ورحمة الله وبركاته)[2] .

وننهي اليكم أن المحب الفقيه الأستاذ سيدي محمد بن يوسف3،طلق اللسان بالشكر،صادح على ايك الثناء عن تلكم السيادة بما و اليتموه به من جزيل الاحسان،وقابلتموه به عند الورد و الصدر من البشر و الكرامة و جميل الامتنان،

وكتب اليه مهنيا بالتزويج

يا من اذا ذكرت الأعيان كان واسطة عقدهم الفريد،واذا شكرت الاخوان كان رابط مجدهم الطارف و التليد، واذا اشتمل ناد على منتدين كان المشار اليه،و اذا احتل هاد بمهتدين كان المعول عليه،أعيذ مجدك الشامخ وعزك الراسخ بآيات الفرقان، وأعيد ذلك التعويذ ليسلم جمع شملك من المفرقان، وأزف عرائس التهاني،وأصف نفائس المثاني،ناطقة بألسن بداياها، واثقة باحسن غاياها،مهنية بما منحك الله من التوفيق للعمل بنسبة الرسول، و التحقيق لما انطوى عليه ضميرك من البلوغ الي ذلك الوصول،فليهنك العرس الذي دقت له في رحاب

الأماني،نوبات المسرة و التهاني،و التزوج الذي صرت به فردا بين أقرانك، ونلت به تجديد ما تقدم من سبب احصانك،فلقد تخيرت المغارس فوقعت على أطيبها أصلا وأزكاها، وليهنك الفارس الذي سينتج من هاتين المقدمتين الصادقة قضاياها،فيا له من فرع نتج من أطيب جرثومة،و أكرم خؤولة عمومه،وهذا من باب التفاؤل المطلوب، و العلم عند علام الغيوب، تفائل شيئا لايكون فقلما يقال لشئ كان الا تحقيقا.

هذا وأنهي بعدما أهني وأثني على شمائلك و أثنى ، البقاء على ما تعهده من الود المحض،والعهد الذي لا يشان بنقص و لا يشاب بنقض، والتشوق المعبر عنه بالجملة الفعلية،و المودة المخبر عنها بالجملة الاسمية . انه قد وصل الكتاب الأول و الثاني ،وعززا بالثالث المرسل صحبة أغا رودس فأغنت عن المثالث و المثاني ،حيث تضمنت خبر صحة مزاجكم الشريف ، و أثر منحة ابتهاجهم هو غنى عن التعريف، فالله تعالى يحفظ هذا القرآن السعيد، بالقرآن المجيد سومح إبراهيم أغا بما توجب عليه في البندر من المعتاد، و عومل بالعناد شملته منكم مواجب الاسعاف و الاسعاد.

ووصل الكتاب الذي شرقتم صدره، و نوهتم قدره بألقاب من تشريف الشرافة، و ما تخلفت عنه الخلافة، فزففته إليه زفاف العروس، فقرت به العيون و طابت بوروده النفوس، و شكر مساعيكم، و دكر صفاتكم و دواعيكم، و أمر الكتاب بالجواب، و هو واصل ضحبة هذا الكاتب. و أعدت النظر في كتابكم الأول فرأيته مشتملا على فصول مهمة اعتمدت عليها المولى و عونه.

بيبلوغرافيا البحث

- القرآن الكريم
- ابن المنقد، الأمير أسامة، لباب الآداب، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.
- ابن فارس(أحمد زكريا): الصحابي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامهما، حققه وقدم له مصطفى الشويمي، مؤسسه .أ.بدران للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان 1963.
- أبو القاسم سعد الله : تجارب في الأدب و الرحلة ، عالم المعرفة ، الجزائر ط3 ، 2009 .
- أبو القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، تقديم محمد رؤوف القاسمي الحسني، دار موفم للنشر، د.ط، 1991.
- أحمد الريسوني : نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي الدار العالمية للكتاب الإسلامي ط4، 1995. الرياض .
- أحمد المتواكل : قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية ، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر والتوسيع ، الرباط ، المغرب، ط1،2001 .
- أحمد يوسف، السيميائيات وفلسفة المعنى، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، وهران، 2004.
- الأزهر زنات، نسيج النص (بحث في ما يكون به الملفوظ نصا)، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1993.
- جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، 1992.

- الجاحظ، البيان والتبيين، ج1.
- الجرجاني، أسرار البلاغة
- جمعة عوض الخباص : نظام الربط في النص العربي .
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، 1982.
- حسن خمري، نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، الدار العربية للعلوم ناشرون (منشورات الاختلاف)، ط1، 2007.
- خليفة بوجادي : في اللسانيات التداولية ، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم بيت الحكمة للنشر والتوزيع –الجزائر- ط1 ،2009.
- السكاكي: (أبو يعقوب يوسف): مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط 2 1987.
- شهاب الدين محمود الحلبي، حسن التوسل في صناعة الترسل، تحقيق أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد، العراق، 1980.
- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1، 1996.
- طاهر محمد التوات، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
- طه عبد الرحمن : اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء بيروت ط1، 1998.

- طه عبد الرحمن : في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ، المغرب ، ط2 -2000.
- عبد الإله الصائغ/ الخطاب الشعري الحتاثوي والصورة الفنية الحداثة والتحليل المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء/ بيروت الطبعة الأولى 1999.
- عبد القادر سكران، الرحلة الحبيبية، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، 2007.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري : إستراتيجيات الخطاب دار الكتاب الجديد المتحدة ، لبنان ، الطبعة الأولى 2003 .
- عبد الواسع الحميري، الخطاب والنص (المفهوم-العلاقة- السلطة)، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 2008.
- عماري فضيلة : فن الإجازة عند أحمد المقري التلمساني جامعة وهران 1910.
- غزال مختارية : وظيفة الإتصال عند ابن خلدون في ضوء العملية التعليمية.
- فون دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر.عبد القادر قنيني، دار إفريقيا الشرق، المغرب، 2000.
- القرطاجني (أبو الحسن حازم)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن خوجة ، دار الغرب الإسلامي،ط3، بيروت، 1986.

- قولفانج : (ه.م.د.فيهقجر): مدخل إلى علم لغة النص، ترجمه وعلق عليه ومهد له : سعيد حسن بحيري ، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، جمهورية مصر العربية ، ط 1 سنة 2004.
- مجمع اللغة العربية : معجم ألفاظ القرآن الكريم ج1.ج2 ط2 الهيأة المصرية للتأليف و النشر 1970.
- محمد إبراهيم عيد: بحوث في علم الإجتماع المعرفي دار الكتاب الحديث ، القاهرة، الكويت، الجزائر 2009 .
- محمد القاضي : الخبر في الأدب العربي السلسلة الجامعية، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، تونس 1998.
- محمد بن رمضان شاوش و الغوتي بن حمدان ، إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، ج1 ، ج2 ، دار بريكسي ، تلمسان 2001.
- محمد بن عبر الكريم المقري و كتابه نفح الطيب منشورات دار الحكمة بيروت لبنان.
- محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 1991.
- محمد سالم سعد الله، مملكة النص (التحليل السيميائي للنقد البلاغي: الجرجاني نموذجا)، عالم الكتب الحديث، إبرد، ط1، 2007.
- محمد شحاتة ربيع، التراث النفسي عند علماء العرب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط4، 2004.
- محمد عزيز نظمي سالم : مناهج تفسير المعرفة.

- محمد محمد بالروين الليبي / قواعد المنطق الصوري والرمزي ومناهج البحث العلمي –بيروت- دار النهضة العربية ، 1998.
- محمد محمد يونس علي : مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب –دار الكتاب الجديد المتحدة – الطبعة الأولى ،2004.
- محمد مسعود جبران، فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، دار المدار الإسلامي، لبنان- ليبيا، ط1، 2004.
- مختار حبار / الشعر الصوفي القديم في الجزائر إيقاعه الداخلي و جماليته منشورات مختبر الخطاب الأدبي في الجزائر –جامعة وهران- الطبعة الثانية، 2010.
- مختار زواوي، السيميائيات التداولية وأبعادها، بحث في تحليل المحايثة، رسالة ماجستير، جامعة وهران، 2003.
- المقري أحمد، رحلة إلى المغرب والمشرق، تحقيق محمد بن معمر، جامعة وهران، 2004.
- المقري أحمد، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحاضرتين مراكش وفاس، تقديم عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط2، 1983.
- المقري أحمد، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب في ذكر وزيرها لسان الدين ابن لخطيب، ج 1، ج7، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988.
- المقري أحمد، أزهار الرياض في ذكر القاضي عياض،

- المنصف عاشور، التركيب عند ابن المقفع في مقدمات كتاب كليلة ودمنة (دراسة إحصائية وصفية) ديوان المطبوعات، الجامعية الجزائر، 1982.
- ناصر اسطنبول، تداخل الأنواع الأدبية، رسالة دكتوراه، جامعة وهران، 2006.
- نور الهدى لوشن : مباحث في علم اللغة و مناهج البحث اللغوي.

فهرس الموضوعات

الصفحة

كلمة شكر وامتنان
إهداء
- مقدمة..... أ

مدخل :
1- أحمد المقري الرحالة المتميز..... 1
2- رحلات المقري 6
3- رحلة المقري إلى المغرب و المشرق وخصوصياتها..... 9

الفصل الأول : المنهج التداولي و علاقته بالخطاب
أ- المفهوم التداولي 18
ب- مفهوم الخطاب 22
1- مفهوم السياق..... 28
2- عناصر السياق..... 33
3- أنواع السياق 34
ج- تمظهر السياقات في الرحلة 36

الفصل الثاني : إستراتيجيات الخطاب وآلياته
أ- مفهوم إستراتيجية الخطاب في الرحلة..... 47
ب- آليات إستراتيجية الخطاب في الرحلة..... 52
I- الكفاءة التداولية..... 52
* الملكات..... 52
II- الكفاءة اللغوية..... 66
* المستويات اللغوية..... 66
III- أفعال الكلام..... 78
IV- القصد 83
V- الإشاريات..... 96

الفصل الثالث : بناء الإستراتيجية عند المقري

أ- إستراتيجية التعاون / التضامن..... 100
ب- إستراتيجية التوجيه 107
ج- إستراتيجية التلميح 113
د- إستراتيجية الإقناع..... 119

- خاتمة ..... ج
- بيبليوغرفيا البحث.....
- ملحق..... 125
- فهرس الموضوعات.....